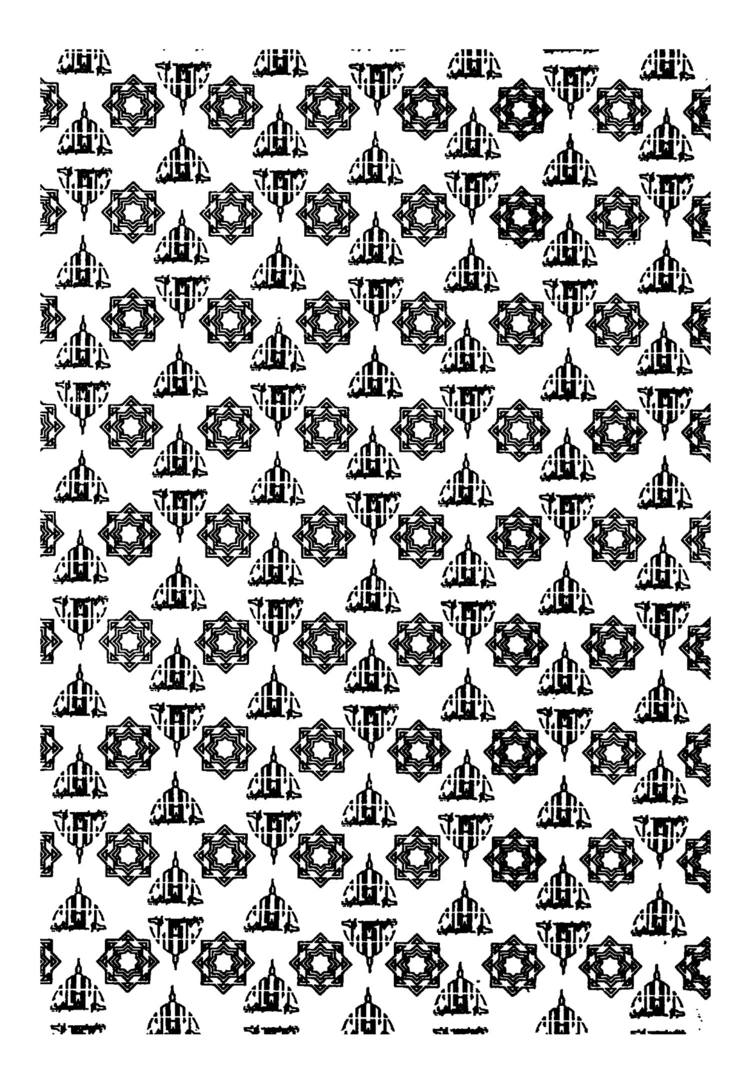
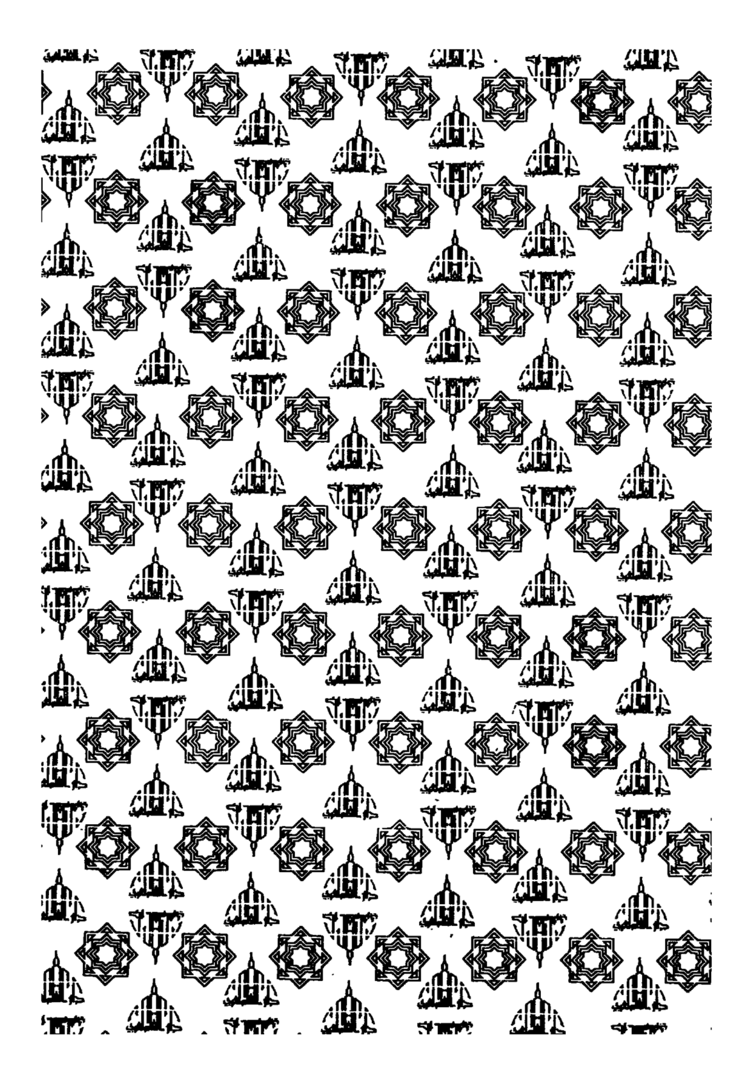
معارك
عربية إسلامية خالدة

دار القلم العربي





معارك عربية خالدة

١٧

معركة حطين

إعداد

عبد القادر الشيخ ابراهيم

دار القلم العربي



منشورات

دار القلم العربي

الطبعة الأولى

1421 هـ - 2001 م

عنوان الدار :

سورية - حلب - خلف الفندق السياحي

ص.ب :78 هاتف : 2213129 فاكس : 2212361 21 963+

البريد الالكتروني : E-mail : qalam_arabi@naseej.com

بسم الله الرحمن الرحيم

معركة حطين

تمهيد

قبلَ أنْ أبدأ كتابةَ أحداث معركــةِ حطــينَ، وضعــتُ المراجعَ التاريخيةَ أمامي وجعلتُ أقلبُ صفحاتِها وأتفحصُــــها بدقةٍ وإمعان، فوجدت نفسي أمامَ مادة كبيرة، خصبةٍ وغنيــةٍ جعلتني مضطراً لذكرِ أهمِ الأحداث التاريخيةِ الــتي سـبقتها، وإلقاء الضوء على الأسباب التي شجعتِ الصليبيين وسمحَــتْ لهم بدخولِ البلدان الإسلاميةِ واحتلالِ مواقعَ هامةٍ واستراتيجيةٍ في قلبِ الوطنِ العربي، ثم أدى إلى إشعالِ ما يُسمّى بــالحروب الصليبيةِ، فما هي تلك الأسباب ...؟

إنّ من أهمِّ تلكَ الأسباب انشقاقَ الخلافةِ الإســلامية إلى شطرين متعادِيَين : الخلافةُ العباسيةُ ببغدادَ، والخلافةُ الفاطميــةُ بمصر ثم تبع ذلك قيام دويلات كثيرة متناحرة، فكـــان مـــن

الطبيعي أن يؤديَ هذا الانشقاقُ إلى ضعفِ الدولةِ الإسلاميةِ، الأمرُ الذي جعلَ أعداءَ المسلمين يطمعون بهم ويعتدون عليهم، فكان الصليبيون أولَ منافسٍ حقيقي لهم في المنطقةِ، بل أشدَّ ضراوةً، وأكثرَ عدواناً وخطراً من غيرهم، فلقدِ استطاعوا بعد حروب طاحنةٍ، ومعاركَ داميةٍ أن يحتلّوا أربعةَ مواضعَ هامةً في قلبِ الوطنِ العربيِ، ومنها أخذوا يشنّون إغاراتِهمُ الغادرةَ والوحشيةَ على المسلمين وهي : بيتُ المقدس[1]، وأنطاكيةُ[2]، والرُّها[3]، وطرابلسُ[4]، ولعلَّ مسؤوليةَ ذلك تقعُ على الحكّامِ المسلمين أنفسهمُ الذين طحنتهمُ الخلافاتُ الطائفيةُ، والصراعاتُ المذهبيةُ، وتكالُبهم على الحكمِ والسلطةِ، وبخاصةٍ ما كان يجري في زمنِ الحكامِ الفاطميين بمصرَ، كما سيأتي بيانُهُ في موضِعِه إنْ شاء الله تعالى.

التعريفُ بصلاحِ الدينِ

في البدء نحبُّ أن نتعرّفَ على البطلِ المؤمنِ الملكِ الناصرِ صلاحِ الدينِ ونلقيَ الضوءَ على جزءٍ من حياتِهِ ليزدادَ الموضوعُ شموليةً وجمالاً، فأقولُ :

(1) بيت المقدس : مدينة قديمة عظيمة معروفة أشهر من أن تعرف.
(2) أنطاكية : مدينة قديمة بالشام تقع غربي مدينة حلب، وتبعد عنها مسيرة يوم وليلة وهي تابعة اليوم لتركيا استلبتها حين استلبت لواء اسكندرون عام ١٩٣٩م .
(3) الرُّها : مدينة بالجزيرة بين الموصل والشام بينهما ستة فراسخ، سميت باسم الذي استحدثها،وهو الرُّهاء بنُ البَلَنْدي بن مالكِ بن دعر، والنسبة إليها رهادي .انظر معجم البلدان
(4) طرابلس : مدينة عظيمة ومشهورة، وهي ثاني أكبر مدن لبنان، تقع على البحر المتوسط في الساحل السوري.

أولاً- اسمُهُ ونسبتهُ :

هو أبو المظفر يوسفُ بنُ أيوبَ بنِ شاذي بنِ مروانَ.

وذكر ابنُ خلِّكانَ : ورأيتُ مدرجاً رتَّبهُ الحسنُ بنُ غريب ابنِ عمرانَ الجرشيُّ يتضمنُ أنَّ أيوبَ بنَ شاذي بنِ مروانَ بنِ أبي علي بنِ عنترةَ بنِ الحسنِ بنِ علي بنِ أحمدَ بن أبي علي بن عبدِ العزيزِ بنِ هدبةَ بنِ الحُصَينِ بنِ الحارثِ بنِ سنانِ بنِ عمرو ابنِ مرةَ بنِ عوفِ بنِ أسامةَ بنِ بيهسَ بنِ الحارثِ صاحبِ الحمالةِ ابنِ عوفِ بنِ أبي حارثةَ بنِ مرةَ بنِ تُشْبَةَ بنِ غيظِ بنِ مرةَ بنِ عوفِ بنِ سعدِ بنِ ذبيانَ بنِ بغيضِ بنِ ريثِ بنِ غطفان بنِ سعدِ بنِ قيسِ عيلانَ بنِ الياسَ بنِ مُضَرَ بنِ نزارِ بنِ مَعَدٍّ بنِ عدنانَ.

ثمَّ رفعَ بعد هذا في النسبِ حتىَ انتهى إلى آدمَ عليه السلام [1]، والله أعلم.

قال ابنُ كثير : والذي عليه جمهورُهم أنه لايُعرفُ بعد شاذي أحدٌ في نسبِهِم. وأغربُ بعضُهم وزعم أنهم من سلالةِ مروانَ بنِ محمدٍ آخرِ خلفاء بني أميّةَ، وهذا ليس بصحيحٍ [2].

---

(1) وفيات الأعيان.
(2) البداية والنهاية ج١٢ ص٢٧١.

ثم ذكرَ ابنُ خلّكان بعد ذلك أنَّ عليَّ بنَ أحمدَ بنِ أبي علي بنِ عبد العزيزِ يقالُ إنه ممدوحُ المتنبّي، ويُعرَفُ بالخراساني، وفيه يقولُ من جملةِ قصيدتِهِ.

شرقَ الجوُّ بالغبارِ إذا ســـا ... رَ عليُّ بنُ أحمدَ القُمقـامُ[1]

وأما حارثةُ بنُ عوفِ بنِ أبي حارثةَ صاحبُ الحَمَالةِ، فـهو الذي حملَ الدماءَ بين عبسٍ وذبيـــانَ، وشـــاركَهُ في الحَمَالـــةِ خارجةُ بنُ سنانٍ أخو هرمِ بنِ سنانٍ، وفيهما قال زهيرُ بـنُ أبي سُلمى المزنيُّ قصائدَ، منها قولُهُ :

على مُكثريهم حقُ مَنْ يعتريــــهمُ ... وعند المُقلّين الســـماحةُ والبـــذلُ

وهل ينبتُ الخطيُّ إلاّ وشـــيجُهُ ... وتُغرَسُ إلاّ في منابِتِها النخـــلُ[1]

---

[1] القُمقام والقُماقمُ من الرجالِ : السيدُ الكثيرُ الخير، الواسعُ الفضل، ويقال سيدٌ قماقمٌ : لكثرة خيره.

[1] الخطيُّ : الرمحُ المنسوبُ إلى الخطِّ، وهو موضعٌ باليمامةِ، وهو خطُّ هجَرَ تنسَبُ إليـــه الرماح الخطية لأنها تحمل من بلادِ الهندِ، فتقوّم به، وليس الخطيُّ الذي هو الرماح من نباتِ أرضِ العرب.

وقالَ زهيرٌ يمدحُ هذين الرجلين اللذين سعيا للإصلاحِ بين عبسٍ وذبيانَ، وإخماد نارِ الحرب بينهما، وللدفعِ الشرِّ والفساد، ورأبِ الصدعِ، ولمِّ الشملِ، وتوحيد الكلمةِ، ودفعـا مـنَ مالِهما ديات قتلى القبيلتين:

يمينـا لنعـمَ السـيدان وجدتمـا ... على كل حال من ســحيلٍ ومُبرَم

تداركتما عبسا وذبيـــان بعـد مـا ... تفانَوا ودقّوا بينـــهم عِطـرَ منشَـم

وقد قلتما إن ندرك السـلمَ واسـعا ... بمالٍ ومعروفٍ مـــن القـول نسـلم

فأصبحتمـا علـى خـيرِ موطــــن ... بعيدَين فيـها مـن عقـوق ومـأثم

عظيمــين في عُليـا مَعَـدٍّ هُديتُمـا ... ومَنْ يستبحْ كنـزا من المجدِ يعظِـم

يقولُ ابنُ خلّكانَ : هذا آخرُ ما ذكَرهُ في المدرجِ، وكـان قد قدّمهُ - أي صاحبُ المدرجِ - إلى الملكِ المعظّمِ شرفِ الديـنِ عيسى بنِ الملكِ العادلِ صاحبِ دمشقَ، وسَمِعَهُ عليه هو وولدُهُ الملكُ الناصرُ صلاحُ الدينِ أبو المفاخِرِ داود بنُ الملكِ المعظـمِ، وكتبَ لهما بسماعِهما عليه في آخرِ رجبَ سنةَ تسعَ عشـرةَ وستمائةٍ، واللهُ أعلمُ، انتهى ما نقلتُهُ من المدرجِ.[1]

ثم قال : ورأيتُ في تاريخِ حلبَ الذي جمعهُ القاضي كمالُ الدينِ أبو القاسمِ عمرُ بنُ أحمدَ المعروفُ بابنِ العديمِ الحلبي بعد أن ذكرَ الاختلافَ في نسبِهِم فقال : وكان المعزُّ إسماعيلُ بـنُ سيفِ الإسلامِ بنِ أيوبَ ملكِ اليمنِ ادّعى نسباً في بـني أميّـةَ وادّعى الخلافة.

وسمعتُ شيخَنا القاضيَ بهاءَ الدينِ عُرِفَ بابنِ شدادَ يحكـي عنِ السلطانِ صلاحِ الدينِ أنّهُ أنكرَ ذلكَ وقال : ليـس لهـذا أصلٌ أصلاً.[2]

ولستُ أدري أنَّ السلطانَ رحمَهُ اللهُ تعالى أنكـرَ ادّعـاءَ النسبِ في بني أميّةَ، أمْ أنّهُ أنكرَ ادّعاءَ المعزِّ إسماعيلَ بنِ سـيفِ

---

[1] وفيات الأعيان لابن خلّكان . ج٧ ص١٤٠-١٤١.
[2] المرجع السابق، ص١٤١.

الإسلامِ بنِ أيوبَ الخلافة ...؟ وعلى أيِّ حالٍ فإنَّ النسبَ الذي ساقَهُ ابنُ خَلّكانَ نقلاً عن المدرجِ نسبٌ عربيٌّ أصيــــلٌ، إذ أنَّ معظَمَ الأسماءِ المذكورةِ أسماءٌ عربيةٌ وعلى هذا فـــإنَّ نســبَ السلطانِ صلاحِ الدينِ عربيٌّ أصيلٌ، لا سيّما وأنّ أحدَ أجــداد صلاحِ الدينِ وهو الحارثُ بنُ عوفِ بنِ أبي حارثـــةَ المتقــدمِ ذكرُهُ والمُلَقَّبُ بصاحبِ الحَمَالةِ لأنهُ حَمَلَ مع خارجةَ بنِ سـنانَ دياتِ القتلى من عبسٍ وذبيانَ كان عربياً أصيلاً، ولعـبَ دوراً كبيراً وحاسماً في الإصلاحِ بين القبيلتينِ المتقاتلتين، وما دعاهُ إلى ذلك إلاّ نفسُهُ الأبيّة، وشهامتُهُ العربيةُ، ونبلهُ وأخلاقُهُ السـنيةُ، والدماءُ العربيةُ التي تجري في عروقِهِ، فلم يرتضِ لنفسهِ أن يـرى أبناءَ جنسهِ وبني جلدتِهِ يقتتلون لسبب تافهٍ أدّى إلى إشعالِ نارِ الفتنةِ ، وقطعِ رابطةِ الأخوةِ، وحَلِّ أواصرِ القُربى ...!!

والذي أثبَتَتْهُ المراجعُ العربيةُ، وأكثرُ الرواياتِ المعتمـدة أنَّ السلطانَ صلاحَ الدينِ رحمَهُ اللهُ تعالى كان كردياً، وإلى هــذا يشيرُ ابنُ خلّكان في وفياتِ الأعيانِ فيقول في حديثِهِ عن نسب صلاحِ الدينِ وأصلِهِ : (اتفق أهلُ التاريخِ على أن أباهُ وأهلَهُ من (دُوينَ) بضم الدالِ المهملةِ وكسر الواو وسكون الياء المثناة من تحتها وبعدها نون، وهي بلدةٌ في آخرِ عملِ أذربيجان من جهةِ

أرّانَ وبلادِ الكرجِ، وأنّهم أكرادٌ روَاديّةٌ، بفتح الراءِ والواوِ، وبعد الألف دالٌ مهملةٌ ثم ياءٌ مثناةٌ من تحتها وبعدها هاءٌ، وهي قبيلةٌ كبيرةٌ من الأكراد، وقال لي رجلٌ فقيهٌ عارفٌ بما يقولُ، هو من أهلِ دُوينَ: إنَّ على باب دُوينَ قريةً يقالُ لها (أجدانَقانَ) بفتحِ الهمزةِ وسكونِ الجيمِ وفتحِ الدالِ المهملةِ وبعد الألفِ نونٌ مفتوحةٌ وقافٌ مفتوحةٌ وبعد الألفِ الثانيةِ نونٌ أخرى، وجميعُ أهلِها أكرادٌ رَوَاديّةٌ، ومولدُ أيوبَ والدِ صلاحِ الدينِ بها، وشاذي أخذ ولديه أسدَ الدين شيركوه، ونجمَ الدين أيوبَ وخرج بهما إلى بغدادَ، ومن هناك نزلوا تكريتَ، ومات شاذي بها، وعلى قبره قبةٌ داخلَ البلدِ.)[1]

وقال ابنُ الأثيرِ في تاريخِهِ الصغيرِ الذي صنَّفَهُ للدولةِ الأتابكيةِ ملوكِ الموصِلِ، في فصلٍ يتعلقُ بأسدِ الدينِ شيركوه، ومسيرِه إلى الديارِ المصريةِ فقال: كان أسدُ الدينِ شيركوه، ونجمُ الدينِ أيوبُ وهو الأكبرُ ابنا شاذي من بلدِ دُوينَ، وأصلُهُما من الأكراد الرَّوادية قد قدِما العراقَ، وخدما مجاهدَ الدينِ بهرُوزَ بنَ عبدِ اللهِ الغياثي شِحنةَ[2] بالعراق، وكان مجاهدُ

[1] وفيات الأعيان، ج٧، ص١٤١.
[2] شحنة العراق: قال الأزهري شحنة الكورة مَنْ فيهمُ الكفاية لضبطها من أولياء السلطان. انظر لسان العرب، أو هي ذخيرة الحرب.

الدينِ خادماً رومياً، أبيضَ اللونِ تولّى شحنةً بالعراقِ من جهةِ السلطانِ مسعودِ بنِ غياثِ الدينِ محمدِ بنِ ملكشاه السلجوقي، وكان مجاهدُ الدينِ صاحبَ همةٍ في عملِ المصالحِ الجليلةِ وعمارةِ البلادِ، واسعَ الصدرِ والصبرِ في البذلِ والإنفاقِ، بنى في بغداد رباطاً وقف عليه وقفاً جيداً، وأنفقَ عليهِ أموالاً كثيرةً.

وبِهروزُ : لفظٌ أعجميٌّ، معناهُ يومٌ جيدٌ، على التقديم والتأخيرِ على عادةِ كلامِ العجمِ.)[1]

وسواءٌ أكانَ أصلُ السلطانِ صلاحِ الدينِ رحمَهُ اللهُ تعالى عربياً أم كردياً فإنَّ هذا لا يغيِّرُ من معدنِهِ وجوهرِه، ولا يزيدُ في قدرِه ولا يُنقِصُ منهُ شيئاً، وحسبُهُ أنَّهُ رجلٌ مسلمٌ، مؤمنٌ باللهِ ورسولِهِ، يغارُ على دينِهِ ووطنِهِ، ويتفجّرُ قوةً وإيماناً، وغيرةً وصلابةً لدينِهِ وعقيدتِهِ، ويفخرُ بانتسابِهِ إلى الإسلامِ، ويعتزُّ بانتمائِهِ لزمرةِ المؤمنينَ الصادقينَ المخلصينَ في إيمانِهِم وجهادِهِم في سبيلِ اللهِ تعالى.

والإسلامُ الذي احتضنَ أبناءهُ، وألّفَ بين قلوبِهِم لم يؤمنْ بالعصبيةِ، ولم يفرقْ بين عربي وعجمي، وأبيضَ وأسودَ، وأحمرَ وأصفرَ إلاّ بالتقوى والعملِ الصالحِ، ورفعَ شعارَ المساواةِ بين أبنائِهِ على اختلافِ أجناسِهِم ولغاتِهِم وألوانِهِم، وجعلَ

---

[1] المرجع السابق.

الأصلَ في ذلكَ قولَ الحقِّ تبارك وتعـالى : (يـا أيُّـها النـاسُ إنّـا خلقناكم من ذكرٍ وأنثى وجعلناكم شُعوباً وقبائلَ لتعارَفوا إنَّ أكرمكمْ عندَ اللهِ أتقاكم إنَّ اللهَ عليمٌ خبير)[1] ﷻ .

وما أجملَ قولَ القائل : ...!!

ومّما زادني شرفـاً وتيـهاً ... وكِدْتُ بأخمَصي أطأُ الثريّا

دخولي تحتَ قولِكَ يا عبادي ... وأنْ صيرتُ أحمدَ لي نبـيّا

تعزيزُ موقفِ نجمِ الدينِ أيوب وأخيهِ لدى عمادِ الدينِ زنكي

لقد رأى مجاهدُ الدينِ بِهروزَ في نجمِ الدين أيوبَ صدقـاً وإخلاصاً ووفاءً، وشجاعةً وبلاءً حسناً، وسلوكاً مُستقيماً، ورأياً صائباً، وعقلاً راجحاً، فجعلهُ دُزدارَ تكريتَ[2]. ودُزدار: لفظٌ عجميٌّ، معناه حافظُ القلعةِ، وهو الوالي.

فلمّا وقع الخلافُ بين بهروزَ من جهةٍ، وبينَ عماد الديـنِ زنكي صاحبِ الموصلِ ومسعودِ بـنِ محمـدِ بـنِ مَلكشـاه السلجوقي من جهةٍ أخرى، وقصَدا حصارَ بغدادَ[3]، وذلك في

---

[1] الآية ١٣ من سورة الحجرات.

[2] تكريت : بلدة مشهورة بين بغداد والموصل، وهي إلى بغداد أقرب، بينها وبين بغـداد ثلاثون فرسخاً، تقع غربي نهر دجلة. انظر معجم البلدان.

[3] بغداد: مدينة عظيمة معروفة ومشهورة، وهي عاصمة العراق، بناها الخليفة العباسـي أبو جعفر المنصور.

أيام المسترشد الذي أرسل إلى قراجا صاحب بـــلاد فـــارس وخوزستان[1] يستنجد به عليهما، فأتاهما فهزمـــهما، فأمـــا زنكي فقد قصد تكريت، فاستقبله نجم الدين أيوب وخدمـــه وقدم له السفن فعبر بها دجلة وتبعه أصحابه، فلما بلغ ذلـــك بهروز عاتبه وأنكر عليه فعله وقال له : كيف ظفرت بعدونـــا فأحسنت إليه وأطلقته ...!!...؟؟ ثم حدث أن أسد الدين قتـــل رجلا من تكريت لكلام جرى بينهما، فغضب مجاهد الديـــن بهروز من ذلك، فأرسل إليهما فأخرجهما من تكريت، فقصدا عماد الدين زنكي، وكان إذ ذاك صاحب الموصل، فاستقبلهما استقبالا حسنا، وأحسن إليهما، وعـــرف لهمـــا خدمتـــهما، وجعلهما من جملة جنده الذين يثق بهم ويعتمد عليهم.

فلما فتح عماد الدين زنكي بعلبك[2] جعـــل نجم الديـــن أيوب واليا عليها، فلما قتل عماد الدين زنكي قام بالملك بعـده ولده سيف الدين غازي بن زنكي الذي حفظ عـــهد أبيـــه وتمسك بنجم الدين أيوب، ثم حدث أن وقعت أحداث جسام لا حاجة لذكرها لعدم مناسبتها، اضطر نجم الدين أيوب علـــى إثرها أن يرتحل إلى دمشق ليقيم بها في خدمة نور الدين محمـــود بن زنكي رحمه الله تعالى الذي قرب منه نجم الديـــن أيـــوب،

---

(1) خوزستان : اسم لجميع البلاد المبدوءة بخوزا مثل خوزان، خوزيان، خوز ... الخ.
(2) بعلبك: مدينة قديمة مشهورة بينها وبين دمشق ثلاثة أيام، وهي اليوم من أعمال لبنان.

وأكرمَهُ غايةَ الكرمِ، وجعَلَهُ قائدَ جيوشِهِ لِما رأى من جرأتِــهِ وشجاعتِهِ ومآثِرِه في الحروبِ والمعارك، أما أسدُ الدينِ شيركوه فقدِ انتقل إلى الدِّيار المصريةِ لإنجادِ (شاور) كما سيأتي إنْ شاء اللهُ تعالى.

ثانياً- لقبُهُ :

كانَ السلطانُ صلاحُ الدينِ رحِمَهُ اللهُ تعالى يُلَقَّبُ بــالملكِ الناصِرِ صلاحِ الدينِ صاحبِ الديارِ المصريةِ، والبلادِ الشــاميةِ، والفراتيةِ واليمنية.

وكانَ الأوسطَ بين إخوتِهِ، وهو غنيٌّ عنِ التعريفِ، فسيرتُهُ أشهَرُ من أنْ تذكَرَ، وأكبرُ من أن تحتاجَ إلى توضيــحٍ وتنبيــهٍ وبيانٍ، فالزهدُ والورع، والتقوى والترفعُ، والعدلُ والســموُّ، كلُّ هذه الفضائلِ العظيمةِ جزءٌ يسيرٌ من أخلاقِهِ وخصائصِــهِ ومزاياه، وحين تقعُ العينُ عليه في الزحامِ لن ترى ما يدعوهــا للتلبثِ والتأمّلِ، إنما ستجدُهُ واحداً من الذين تخلّقــوا بخُلــقِ القرآن، وتأدّبوا بأدبِ الإسلامِ، وعملوا بنهجِهِ، وكأنّهُ واحــدٌ من الصحبِ الكرامِ بُعث من جديدٍ أشــعَثَ أغــبرَ ليــس في ملبسِهِ، ولا في شكلِهِ الخارجي ما يميزُهُ عن أصحابِ رسولِ اللهِ ﷺ بشيءٍ وكأنهُ قديسٌ تفرُّ كلُّ شياطينِ الإغراءِ أمامَ عينيــهِ وعزوفِهِ وتواضعِهِ وزهدِهِ وعملِهِ بنهجِ الإسلامِ، وتطبيقِ حدودِهِ وأحكامِهِ وعدالتهِ ...!!

ثالثاً ـ أخلاقُهُ وتواضُعُهُ :

أجمَعَتْ كتبُ التاريخِ والرواياتُ التي تتحدثُ عن سيرةِ صلاحِ الدينِ العطرةِ وأخلاقِهِ العاليةِ : أنّهُ كانَ كثيرَ التواضعِ واللطفِ، قريباً من الناسِ، رحيمَ القلبِ، رحبَ الصدرِ، واسعَ الحلمِ والإحسانِ، وكانَ يحبُّ العلماءَ وأهلَ الخيرِ، ويُقرِّبُهم منه ويحسنُ إليهم، وكان يميلُ إلى الفضائلِ، ويستحسنُ الأشعارَ الجيدةَ، ويردِّدُها في مجالسِهِ، حتى قيلَ : إنّهُ كانَ كثيراً ما ينشدُ قولَ أبي منصور الحميري :

وزارني طيفُ مَنْ أهوى على حَذَرٍ ... من الوشاةِ وداعي الصبحِ قد هتفا

فكدْتُ أوقظُ مَنْ حولي به فرحاً ... وكاد يهتكُ سترُ الحبِّ بي شعفا[1]

ثم انتبهتُ وآمالي تخيّلُ لي ... نيلَ المنى فاستحالَتْ غبطتي أسفا

وقيل : إنّهُ كان يحبُّ قولَ ابنِ المنجمِ المعري الأصلِ، المصري الدارِ والوفاة وهو في خضاب الشيب،ولقد أحسنَ فيه:

وما خَضَبَ الناسُ البياضَ لقبحِهِ ... وأقبحُ منه حَينَ يظهرُ ناصلُهُ[2]

ولكنّهُ ماتَ الشبابُ فسُوِّدَتْ ... على الرسمِ من حزنٍ عليه منازلُهْ

هذا ... وسوف أذكُرُ المزيدَ من قولِهِ الشعرَ، وما قيلَ فيه إنْ شاءَ اللهُ تعالى في خاتمة الحديث.

---

[1] الشعفُ والشغف بالعين والغين : شدة الحب وارتفاعه إلى أعلى موضع من القلب.
[2] ناصله : نَصَلَ الشيء من موضعه، خرج منه.

رابعاً - مولدُهُ :

اتفقَ أربابُ التواريخِ وأصحابُ التراجمِ أنَّ مولدَ السلطانِ صلاحِ الدينِ رحمَهُ اللهُ تعالى كان سنةَ اثنتين وثلاثين وخمسمائةٍ بقلعةِ تكريتَ بالعراق، وذلك حين كان أبوهُ وعمُّهُ في خدمةِ مجاهدِ الدينِ بهروز، ويبدو أن نجمَ الدينِ أيوب وأخاهُ أسدَ الدينِ شيركوه لم يقيما بعد ولادة صلاحِ الدينِ إلاّ يسيراً، لأنهما أُخرجا من تكريتَ كما تقدّم فاتَّصلا بعمادِ الدينِ زنكي بالموصِلِ، فأكرمَهُما وأحسَنَ وفادتَهما.

ولما حاصَرَ عمادُ الدينِ زنكي دمشقَ وبعدها بعلبكَ وأخذها رتَّبَ فيها نجمَ الدينِ أيوبَ والياً، وذلك في أوائِلِ سنةِ أربعٍ وثلاثين.[1]

وقال ابنُ خلّكانَ في موضعٍ آخر : ثمّ أخبرني بعضُ أهلِ بيتِهم، وقد سألْتُهُ : هل تعرفُ متى خرجوا من تكريتَ ...؟

فقال : سمعتُ جماعةً من أهلِنا يقولون : إنّهم أُخرجوا منها في الليلةِ التي وُلِدَ فيها صلاحُ الدينِ، فتشاءموا به وتطيروا منه، فقال بعضُهم : لعلَّ فيه الخيرَ وما تعلمون ...!!

فكان كما قال، واللهُ أعلمُ .[2]

---

[1] و[2] وفيات الأعيان ج٧ ، ص١٤٤-١٤٥ بتصرفٍ.

سببُ خروجِ نجمِ الدينِ أيوبَ وأخيهِ شِيرِكوهَ من تكريتَ :

علمنا مما تقدّم أن شاذيَ بنَ مروانَ والدَ نجمِ الدينِ أيوبَ كان من قريةِ دُوينَ ومن أبناءِ أعيانها، وأشرافِ أهلِها، وكانَ لهُ صاحبٌ يُقالُ له مجاهدُ الدينِ بهروز، وكان ظريفاً لطيفاً، حَسَنَ المجالسةِ، مُحبباً، وخبيراً بتدبير الأمور، وكان بينَهُ وبين شاذي بنِ مروانَ صداقةٌ حميمةٌ بَلَغَتْ حدَّ الأخوة، ولقد صدف أن حَدَثَ لبهروزَ قضيةٌ في قريتِهِ دوينَ تمسُّ بنخوتِهِ وأخلاقِهِ، وقد ذكرَها ابنُ خلّكان فقال :

(فَجَرَتْ لبهروزَ قضيةٌ في دُوينَ، فخرجَ منها حياءً وحشمةً، وذلك لأنّهُ اتُّهمَ بزوجةِ بعضِ الأمراءِ بدُوينَ، فأخذهُ صاحبُها فخصاهُ، فلمّا مُثِّلَ به لم يقدرْ على الإقامةِ بالبلدِ، فقصدَ خدمةَ أحدِ الملوكِ السلجوقيةِ، وهو السلطانُ غياثُ الدينِ محمدُ بنُ ملكشاه ... إلى أن قال : واتّفقَ موتُ اللالا فجعلهُ السلطانُ مكانَهُ، وأرصَدَهُ لمهامِّهِ، وسلَّمَ إليهِ أولادَهُ، وسار ذكرُهُ في تلك النواحي، فسيَّرَ إلى شاذي يستدعيهِ من بلدِهِ ليشاهدَ ما صار إليهِ من النعمةِ، وليقاسِمَهُ فيما خوَّلَهُ اللهُ تعالى، وليعلمَ أنهُ ما نَسيَهُ.

فلما وصلَ إليه بالَغَ في إكرامِهِ والإنعامِ عليه.

واتّفقَ أنَّ السلطانَ رأى أن يُسيِّرَ المجاهدَ المذكورَ إلى بغدادَ والياً عليها ونائباً عنه بها، وكذا كانت عادةُ الملوكِ السلجوقيةِ في بغدادَ يسيّرون إليها النوّابَ، فاستصحَبَ معه شاذيَ المذكورَ، فسارَ إليهِ هو وأولادُهُ، وأعطى السلطانُ لبهروزَ قلعةَ تكريتَ، فلم يجدْ مَنْ يثِقُ إليه في أمرِها سوى شاذي المذكور، فأرسلَهُ إليها، فمضى وأقام بها مدةً وتوفيَ بها، فولّى مكانَهُ ولَدَهُ نجمَ الدينِ أيوبَ المذكورَ، فنهض في أمرها، وشكرهُ بهروزُ وأحسنَ إليه، وكان أكبرَ سناً من أخيهِ أسدِ الدينِ شيركوهَ، ثم اتفق أن إحدى النساء خرجت من قلعةِ تكريتَ لأمرٍ ما، ثم عادَتْ فمرّتْ بنجمِ الدينِ وأخيهِ وهي تبكي، فسألاها عن سببِ بكائها، فأجابتْهُما أنَّ رجلاً تعرّضَ لها وهي داخلةٌ من بابِ القلعةِ، فقام شيركوهُ فأخذَ الحربةَ فضربهُ بها، فقتَلَهُ، فأمسكَهُ أخوهُ نجمُ الدين واعتقلَهُ، وكتب إلى بهروزَ يخبرُهُ بما جرى، فوصل إليه جوابُهُ يقول فيهِ :

" لأبيكما عليَّ حقٌّ، وبيني وبينهُ مودّةٌ متأكدةٌ، ما يمكنُني أنْ أكافئَكُما بحالةٍ سيئةٍ تصدُرُ منّي في حقّكما، ولكن أريدُ منكما أنْ تتركا خدمتي، وتخرجا من بلدي، وتطلبا الرزقَ حيثُ شئتما"

فلما وصلهما الجوابُ لم يستطيعا المقامَ بتكريتَ، فخرجا منها وذهبا إلى الموصلِ فأحسَنَ إليهما الأتابكُ عمادُ الدينِ زنكي، وبالغَ في إكرامِهما، والإنعامِ عليهما كما تقدّم.[1]

خامساً ـ نشأتُهُ :

وُلِدَ السلطانُ صلاحُ الدينِ رحمَهُ اللهُ تعالى في بيتٍ وارفِ النعمةِ، مزهوٍ بالسيادةِ، مشهورٍ بالعزِّ والشرفِ والدينِ، معروفٍ بالجودِ والكرمِ والفضيلةِ.

في هذه البيئة المؤمنةِ نشأ صلاحُ الدينِ، وترعرع في كَنَفِ أبيهِ على النعمةِ، وغُذّيَ بها؛ وشبَّ تحت خمائِلِها، مفطوراً على العلمِ والإيمانِ والأخلاقِ العظيمةِ، والمزايا النبيلةِ، والفضائلِ الساميةِ، والآداب السنيةِ العاليةِ.

[1] وفيات الأعيان : ج1 ص255-256-257.

ولـمّا ملكَ نورُ الدينِ محمودُ بنُ عمادِ الديـنِ زنكـي دمشقَ كان صلاحُ الدينِ في خدمتِهِ مع أبيهِ، فكانَتْ علامـاتُ النجابةِ عليه ظاهرةً، ومخايلُ الذكاءِ عليه واضحةً، وأمـاراتُ السعادةِ عليه لائحةً، فكانتْ هذه السّماتُ تقدمُهُ من حالـةٍ إلى حالةٍ، وتعزّزُ مكانتَهُ عند السلطانِ درجةً بعد أخرى، ونـورُ الدينِ محمودُ زنكي يُدنيه منه، ويقربُهُ إليهِ، ويؤثِرُهُ عندهُ علـى غيرِهِ في كلِّ شيءٍ، ومنهُ تعلَّمَ صلاحُ الدينِ حُبَّ الخيرِ، وفِعْـلَ المعروفِ وعشقَ الجهادِ، بعد أن أتقَنَ الرميَ والفروسيةَ، وأصبحَ من الفرسانِ المعدودين منذ تلكَ الفترةِ اتخذَ صـلاحُ الديـنِ صناعةَ الجهادِ في سبيلِ اللهِ، وامتشقَ حسامَهُ وراح يبحثُ عـن موقعةٍ يُظْهِرُ فيها مقدِرَتَهُ وجدارتَهُ في الحروبِ والنّزالِ ومقارعةِ الفرسانِ، وكفاءتَهُ في خوضِ المعاركِ وصناعةِ النصرِ والفتـحِ بإذنِ اللهِ تعالى.

سادساً ـ حروبُهُ :

كانَتْ أولى حروبِ صلاحِ الدينِ رحِمَهُ اللهُ تعالى حـين توجَّهَ مع عمِّهِ أسدِ الدينِ شيرِكوهَ إلى الديارِ المصريةِ لنجـدةِ

(شاورَ بنِ مجبيرٍ) وزير العاضد صاحبِ مصرَ، وكانَ شاورُ هذا قد هرَبَ إلى مصرَ من الملكِ المنصورِ أبي الأشبالِ ضرغامِ بــــنِ عامرِ بنِ سوّارَ الملَقّبِ بفارسِ المسلمين الذي اســـتولى علـــى الدولةِ المصريةِ بعد أن قهر شاور المذكورَ، وأخذَ منهُ الـــوزارةَ وقتَلَ ولَدَهُ الأكبَرَ طيَّ بنَ شاورَ، فتوجَّهَ شـــاور إلى الشـــامِ مستغيثاً بالملكِ العادلِ نورِ الدينِ محمودِ بنِ زنكي، وذلـــك في شهرِ رمضانَ سنةَ ثمانٍ[1] وخمسينَ وخمسمائةٍ، فأغاثَهُ محمودُ بنُ زنكي ووجَّهَ معهُ الأميرَ أسدَ الدينِ شيركوهَ بنَ شاذي علـــى رأسِ جيشٍ فيه ابنُ أخيهِ صلاحُ الدينِ الأيوبيُّ رحمَهُ اللهُ تعـــالى، وكان صلاحُ الدينِ كارهاً لهذا السفرِ، وكانَ لنورِ الدينِ محمودٍ زنكي في إرسالِ هذا الجيشِ غرضان :

أحدُهُما : القيامُ بواجبِ إغاثةِ الملهوفِ وقضاءُ حقِ شـــاور الذي استغاثَ بهِ ودخلَ عليه مستصرخاً، وهذا مـــن سمـــاتِ المؤمنِ،

ثانيهما : أنه أرادَ أنْ يعلمَ أحوالَ البلاد المصريةِ لأنَّهُ كـــان قدْ بلَغَهُ أنّها ضعيفةٌ من جهةِ الجندِ، وأحوالُها الداخليةُ في غايـــةٍ

---

[1] وقيل : تسع وخمسين.

من التفكك والاختلال، فأراد أن يكتشف حقيقة ذلك، ويتأكد منه، فانتدب لهذا الأمر أسد الدين شيركوه لكونه شديد الثقة به، وكثير الاعتماد عليه لشجاعته وإخلاصه وأمانته ومعرفته بالأمور العسكرية والسياسية .

هذا ... وكان شيركوه قد جعل ابن أخيه صلاح الدين على مقدمة الجيش وشاور معهم، فدخلوا مصر وقتلوا ضرغام ابن عامر المذكور، واحتزوا رأسه وطافوا به على رأس رمح، وبقيت جثته مكانها ثلاثة أيام تأكل منها الكلاب، ثم دفنوه في موضع يقال له (بركة الفيل) وعاد شاور إلى منصبه في الوزارة.

معركة بلبيس

استقرت الأمور لشاور بن مجير بعد مقتل الضرغام، ووصل إلى هدفه، وحقق غايته، فغدر بأسد الدين شيركوه، واستنجد بالفرنج عليه فدخلوا الديار المصرية، وعاثوا فيها الفساد، وسرقوا الأموال، واعتدوا على النساء، وانتهكوا الحرمات، ولم يتركوا فاحشة أو رذيلة إلا فعلوها، واستحوذوا على كل شيء، وأسكنوا فيها جنودهم وأمروهم أن لا يدعوا قبيحة إلا فعلوها.

وكانوا قد دخلوا مصرَ بجحافِلَ هائلةٍ جاؤوا إليها من كـلِّ فجٍّ وناحيةٍ يصحَبُهُم ملكُ عسقلانَ[1]، فكانت (بلبيسُ)[2] أولَ مدينةٍ دخلوها وحصروا فيها عدداً كبيراً من جنودِ أسدِ الديـنِ شيركوهَ الذي غادرها قبل مجيءِ الفرنجِ وهو لا يعلمُ بمجيئِـهم، لاعتقادِهِ أنَّ الأمور قدِ استقرَّت بمقتلِ الضرغامِ وعودةِ شـاور إلى الوزارة.

وكان الفرنجُ قد توغّلوا في الديارِ المصريةِ، وقتلوا وأسـروا الرجالَ، ونهبوا الأموالَ، واعتدَوا علـى النسـاءِ، وخطفـوا الأطفالَ، وقتلوا الرُّضَّعَ، وعاثوا في الأرضِ الفسادَ، واتّخـذوا من مدينةِ بلبيسَ قاعدةً لهم، وجعلوها نقطةً لتجمُّعِ جنودِهـم، ثم انتقلوا منها إلى مدينةِ القاهرةِ فدخلوها واستباحوا ما فيـها فعند ذلك أرسل العاضدُ يستنجدُ بنورِ الدينِ محمود زنكـي، ويطلبُ منهُ العونَ والنجدةَ، وبعثَ إليهِ بشعورِ نسائِهِ يقولُ له: أدركني واستنقذْ نسائي من أيدي الفرنجِ، والتزَمَ لـه بثلثِ

---

[1] عسقلان: مدينة بالشام من أعمال فلسطين على ساحل البحر بين غزّة وبيت جـبرين، ويُقال لها عروس الشام ... انظر معجم البلدان.

[2] بلبيس: مدينة بينها وبين فسطاط مصر عشرة فراسخ على طريق الشام. انظر معجم البلدان.

خراجِ مصرَ على أنْ يكونَ أسدُ الدينِ مقيماً بها عندهم، كما التزمَ له بإقطاعاتٍ كثيرةٍ زائدةٍ على الثلثِ.

فاستجابَ له نورُ الدينِ، وشرعَ في تجهيزِ الجيوشِ، فلمّا استشعرَ الوزيرُ شاور بوصولِ جيوشِ المسلمين أرسلَ إلى ملكِ الفرنجِ يستنجدُهُ وعرَضَ عليهِ ألفَ ألفِ دينارٍ، ثم زادَها ثمانمائةِ ألفِ دينارٍ أخرى.

فوافقهُ على ذلك، فانشمر مع جنودهِ ورجعوا من حيثُ أتوا خوفاً من جنودِ المسلمين، وقد قُدِّمَتْ لهم ألفُ ألفِ دينارٍ على طبقٍ من ذهبٍ جاءَهُم مكسَباً من شاور مع أنّهم كانوا سيرجعونَ على أي حالٍ حين علموا بمقدم المسلمين، وكانَ الأملُ يحدوهم، والطمعُ يغريهم بالعودةِ إليها مرةً ثانيةً، وأنّى لهم ذلك ...!! (ويمكرون ويمكرُ الله واللهُ خيرُ الماكرين)[1].

ثم شرعَ الوزيرُ شاور يجمعُ الأموالَ التي التزمَ بها للفرنجةِ، وضغطَ على الناسِ وضيّقَ عليهم مع ما نالَهم من الضيقِ والحريقِ والخوفِ، فلم يتمكن من جمعِ هذا المبلغِ الكبيرِ من

[1] الآية ٣٠ من سورة الأنفال.

المالِ، إذْ لم يجمعْ سوى خمسةِ آلافِ دينارٍ، وكانَ النـــاسُ في هذه الفترةِ يراسلونَ نورَ الدينِ زنكي، ويصفونَ له الأحـــوالَ المتردّيةَ من الناحية الماليةِ، والظروفَ القاسيةَ التي يمرون بهـــا، ويطلبونَ منه أن يهبَّ لنجدَتِهم، فكانتْ كتُبهم تأتيهِ متتاليـــةً، وفيها الإلحاحُ بطلبِ العونِ والنجدة.

عودةُ شيركوهَ إلي مصرَ مرةً ثانيةً

علمَ نورُ الدينِ زنكي وأسدُ الدينِ شيركوه باتّفاقِ شـــاور مع الفرنجةِ ومكاتبتهِ إياهم، فخشيا على الدّيارِ المصريةِ أن تقـعَ بيدِ الفرنجةِ، وتقعَ بطريقِهم جميعُ البلاد، فتجهز أســدُ الدّيـــن وأنفذَ معهُ نورُ الدّينِ جيشاً فيهِ صلاحُ الدينِ عوناً لعمّهِ أســدِ الدينِ.

وانطلَقَ أسدُ الدّينِ يقودُ ستةَ آلافِ فارسٍ ومعهُ ابنُ أخيـهِ صلاحُ الدينِ، فلمّا أصبحوا على مشارفِ مصرَ، ورأتِ الفرنجةُ راياتِهم تخفقُ، مقبلةً عليهم وقعَ الخوفُ في قلوبهم، وخرجـــوا من مصرَ بخفّي حنينٍ لم ينالوا خيراً، ولم يصلـــوا إلى تحقيـقِ أهدافِهم.

أما أسدُ الدينِ وجنودُهُ المؤمنونَ فقد أسرعوا الخطى ينهبونَ الأرضَ حتى دخلوا مدينةَ القاهرةِ وفرحَ بهم أهلُ مصرَ فرحاً شديداً وراحوا يستقبلونهم بالزغاريدِ والهتافاتِ التي تعبّرُ عن فرحتِهم وسرورهم بمجيئهم.

وأُسقِطَ في يدِ شاورَ، وتلاشَتْ أحلامُهُ وآمالُهُ، وصُدِمَ بصورةٍ عنيفةٍ فلم يتمكنْ من مقاومتِهم أو منعهم من دخولِ مصرَ، ولم يجرؤْ على إظهارِ ما في نفسهِ من الغدرِ والخيانةِ، لأنهُ رأى مع شِيرِكوهَ جنوداً كثيرةً، وعلمَ أنَّ العاضدَ هو الّذي استدعاهُ واستنجدَ بهِ، كما أنَّ حلفاءهُ الفرنجةَ قد خرجوا من مصرَ وتخلّوا عن نصرتِهِ، وأخذَ يراوغُ ويماطلُ في تسديدِ ما عليهِ لنورِ الدينِ من المالِ وإقطاعِ الجندِ، وهو مع هذا كان يذهبُ كلَّ يومٍ إلى أسدِ الدينِ شِيرِكوهَ فيجتمعُ بهِ، ويعِدُهُ ويمنّيهِ، ولا يفي لهُ بشيءٍ من وعودهِ، محاولاً كسبَ الوقتِ لتدبيرِ مكيدةٍ للإيقاعِ بأسدِ الدينِ ومَنْ معهُ من القادةِ والأمراءِ والفرسان.

ثم عزمَ على أن يصنعَ طعاماً يدعوهم إليهِ ثم يقبضُ عليهم، فنهاهُ ابنُهُ الكاملُ وقال له : واللهِ لئن عزمتَ على هذا لأخبرَنَّ بهِ شِيرِكوهَ.

فقال له أبوهُ : واللهِ لئن لَمْ نفعلْ هذا لَنُقْتَلَنَّ جميعاً.

فقال الكامل : صدقْتَ، ولكنْ نُقْتَلُ ونحن مسلمون خيرٌ من أنْ نقتلَ وقد مَلَكَها الفرنجُ، فإنهُ ليسَ بينكَ وبينَ عودةِ الفرنجِ إلاّ أنْ يسمعوا بالقبضِ على شِيرِكوه، وحينئذٍ لو مشى العاضدُ إلى نورِ الدينِ لم يرسلْ معه فارساً واحداً ويملكون البلادَ بأيسرِ أمرٍ.

فأذْعَنَ شاور لرأي ابنِهِ، وتركَ ما كان عزَمَ عليهِ من استعمالِ الغدرِ والخديعةِ.

مقتلُ الوزيرِ شاور

أدْرَكَ الأميرُ أسدُ الدّينِ مَطْل شاور وتسويفَهُ وتلاعُبَهُ، وخشيَ منهُ الغدْرَ، وأنّهُ يلعبُ بهِ تارةً وبالفرنجِ تارةً أخرى، وأنّ الفرنجَ متى وجدوا فرصةً والحالةُ هذه أخذوا البلادَ واستولوا على كلِّ شيءٍ، لذلكَ أيقَنَ أسدُ الدّينِ أنّهُ لا سبيلَ إلى الاستيلاء على البلادِ إلاّ بقتلِ شادر، أوِ القبضِ عليه، وكان الوزيرُ شاور يعتقدُ أنّ أسدَ الدينِ شِيرِكوهَ لايجيدُ أمورَ السياسةِ، وأنّهُ يمكنُ اللعبُ به، ولذلك بعد أنْ جاءَ أسدُ الدينِ

إلى مصرَ نجدةً لشاور وساعَدَهُ بالعودةِ إلى الوزارةِ، وأنقَذَهُ من الصليبيين، تخلّى عنه شاور ولم يحفِلْ به وكانَ يتظاهرُ له بالمحبة والمودّةِ، فأرسَلَ إليهِ شيركوهُ يطلبُ منه الوفاءَ بوعدِهِ، والقيامَ بالتزامِهِ بتسديدِ نفقاتِ الجندِ ويقولُ له: قدْ طالَ مقامُنا في الخيامِ، وقد ضجرَ العسكرُ من الحرِّ والغبارِ.

فأرسلَ إليهِ شاور ثلاثين ألفَ دينارٍ وقال لهُ : خذها وانصرفْ بأمانِ الله.

ولكنَّ شيركوه كان لهُ رأيٌ آخرُ في الموضوعِ، فقد كانَ يحلُمُ بحكمِ مصرَ، والبقاءِ فيها، ذلك أنّهُ قد شاهدَ البلادَ وتعرَّف عليها، وعَرَفَ أحوالها، وخفايا أمورِها، وأنّها مملكةٌ بغيرِ رجالٍ، ودولةٌ بلا حكامٍ، ومسرحٌ للغدرِ والتآمرِ والاقتتالِ، تدبُّ فيها الفوضى والتسيّبُ، وتجري فيها الأمورُ بمجرّدِ الإيهامِ والأهواءِ، فطمِعَ بها، وقرَّرَ البغاءَ فيها، لذلكَ رفَضَ عرضَ شاور وعبسَ في وجههِ وقال له : إنَّ نورَ الدينِ أمَرَهُ أن يبقى في مصرَ بعد عودةِ شاور إلى الوزارةِ، وأن يَقسمَ وارداتِ مصرَ ثلاثةِ أقسامٍ :

قسمٍ لشيركوهَ وجندِهِ، وقسمٍ لشاور وعسكرِهِ، وقسمٍ للخليفةِ العاضدِ، ولكن شاور أنكَرَ أنْ يكونَ مثلُ هذا الاتّفاق تمَّ بينهُ وبيْنَ نورِ الدينِ.

ولقدْ حدث أنِ اتّفقَ صلاحُ الدّينِ، وعزُّ الدينِ جورديك، وغيرهما من القادةِ والأمراءِ المخلصين على قتلِ شاور لأنّهم لمسوا منهُ الغدرَ والخيانةَ من مماطلتِهِ وتسويفِهِ، وتصرّفاتِهِ المريبةِ، فأخبروا بذلك أسدَ الدينِ فنهاهُم عنه.

هذا ... ولا يزالُ شاور يتردّدُ كلَّ يومٍ إلى مجلسِ أسدِ الدّينِ، وذهبَ إليه يوماً فلمْ يجدْهُ في خيمتِهِ، وكانَ قدْ ذهبَ إلى زيارَةِ قبرِ الإمامِ الشافعي ﷺ بالقرافةِ، فقال شاورُ: نمضي إليهِ، وفي الطريقِ التقى به صلاحُ الدّينِ وجورديكُ فاكتنفاهُ وألقيا عليهِ القبضَ وأخذاهُ أسيراً بعدَ أنِ انفضَّ عنه أصحابُهُ وهربوا من مواجهةِ صلاحِ الدينِ، هذا ... وقد تركاهُ مقيداً، ولم يتمكنّا من قتلِهِ بغيرِ إذنٍ من نورِ الدينِ، أو أسدِ الدينِ، فجعلاهُ في خيمةٍ أسيراً، فأرسَلَ إليهمُ العاضدُ يأمُرُهم بقتْلِهِ، فلم يتركوهُ لحظةً، فقتلوهُ وجعلوا رأسَهُ على رأسِ رمحٍ،

وأرسلوهُ إلى العاضِدِ الذي استدعى أسدَ الدينِ مباشرةً، وكافأهُ وخَلَعَ عليهِ خِلَعَ الوزارةِ وجَعلَهُ مكانَ شاورَ، ولقَّبَهُ الملكَ المنصورَ أميرَ الجيوشِ.

أمّا الكاملُ بنُ شاور فقد دخلَ القصرَ هو وإخوتُهُ معتصمين بهِ، وذلكَ بعدَ مقتلِ أبيهم، فانقضَّ عليهم بعضُ الجندِ فقتلوهُم، فلمّا أخْبرَ شِيرِكوهُ بمقتلهم حزنَ عليهم، لأنَّهُ بلغَهُ أنَّ الكاملَ عارضَ أباهُ أنْ يغْدِرَ بشيركوه، فكانَ يقولُ: ودِدْتُ لو بقيَ لكافأتُهُ وأحسنتُ إليهِ جزاءَ صنيعتِهِ.

انتهى بتصرفٍ من البداية والنهايةِ، والكامل في التاريخ، ووفيات الأعيان.

وصولُ صلاحِ الدينِ إلي الوزارةِ

ورَدَتِ الأخبارُ إلى نورِ الدينِ زنكي بأنَّ أسدَ الدينِ شِيرِكوهَ أجلى الفرنجَ عن مصرَ وقتلَ الوزيرَ شاور حين اشتمَّ منه رائحةَ الغدرِ والخيانةِ، ففرحَ بذلك فرحاً شديداً، وقصدتْهُ الشعراءُ من كلِّ مكانٍ بالتهنئةِ، غيرَ أنَّ فرحتَهُ لم تكتملْ، لكونِ

أسدِ الدينِ صارَ وزيراً للعاضدِ، فشرعَ يستعملُ الحيلةَ في إلغـاءِ وزارةِ أسدِ الدينِ فلم يتمكنْ، والذي زادَ من غضَبِهِ أنّهُ بلغَهُ أنَّ صلاحَ الدينِ استحوذَ على خزائنِ العاضدِ، واجتمـعَ النـاسُ حولَهُ وحولَ عمّهِ أسدِ الدينِ الذي أرسلَ إلى القصرِ يطلـبُ كاتباً، فأرسلوا إليهِ القاضيَ الفاضلَ رجاءَ أن يقبلَ منه إذا قال، وأفاض فيما كانوا يؤملون.

وبعثَ أسدُ الدينِ العمالَ في البلادِ، وأقطع الإقطاعـات، وولّى الولاياتِ، وفرح بنفسِهِ أيّاماً معدوداتٍ، وفجأةً أدركَـهُ حِمامُهُ في يومِ السبتِ الثاني والعشرين من جمادى الآخرةِ سـنةَ أربعٍ وستين وخمسمائةٍ، فكانَتْ وزارتُهُ شهرين وخمسةَ أيـامٍ رحمَهُ اللهُ تعالى.

فأشارَ الأمراءُ وقادةُ الجندِ والفرسانُ الشاميون على العاضِدِ بتوليةِ صلاحِ الدّينِ يوسفَ بنِ أيوبَ الوزارةَ بعد عمِّهِ، فـهيَ منـزلةٌ هو لها أهلٌ وبها جديرٌ، فاستجابَ لهم، وولاّهُ الـوزارةَ وخلعَ عليهِ خلعةً سنيةً، ولقبهُ الملكَ الناصرَ، وذلـكَ في يـومِ الاثنين الخامسَ والعشرين من جمادى الآخرةِ، فكـانَ يومـاً مشهوداً لم يرَ الناسُ مثلَهُ، ولم تشْهَدْ مصرُ لَهُ مثيلاً في الروعـةِ

والبهاءِ، والجلالِ والجمالِ، وكأنَّ الدنيا بأسرِها فرِحَتْ لصلاحِ الدينِ، ورقَصَتْ طرباً، وأَنشدَتْ نشيداً جميلاً رائعـــاً، وردَّدت قولَ الشاعرِ جريرِ بنِ عطيةَ :

جاء الخلافةَ أو كانت له قدراً كما أتى ربَّهُ موسى على قدَرِ

وكأنَّ المشهدَ قد تحوّلَ إلى مـــهرجانٍ حـــافلٍ بالحركـــةِ والفرحِ، فيهِ طبولٌ تدقُّ، وراياتٌ ترتفعُ، وأَبـــواقٌ تـــدوّي، وأناشيدُ تُتلى، وأغاريدُ تسبحُ.

عيدٌ بكلِّ جمالِ العيدِ، وجلالِ العيدِ، وبهجةِ العيدِ، وحماسةِ العيدِ، وضجةِ العيد ...!!

ومَنْ يدري ...؟ فلربّما كان لهذا العيد خطـــرُهُ وجلالُـــهُ، ولربّما سوفَ ينبئُ هذا العيدُ عن أمرٍ جللٍ، ويـــترتبُ عليـــهِ حوادثُ جسامٌ...؟؟؟

لقد بايعَ الناسُ صلاحَ الدّينِ، ودَعوا لـــهُ علـــى المنـــابرِ، والتفت حولَهُ النفوسُ، واجتَمَعَتْ عليهِ القلوبُ، وارتفعَ قَـــدْرُهُ بين العباد وفي جميعِ البلادِ، إلاّ ما كانَ من عينِ الدولةِ الباردقي الذي تخلّفَ عنِ بيعتِهِ وقال : لا أخدُمُ يوسفَ بعدَ نورِ الدّيـــنِ، وكتَبَ إليهِ نورُ الدّينِ يعاتبُهُ ويلومُهُ على قبولِ الـــوزارةِ قبـــل

موافقتِهِ ودونَ مرسومِهِ، وجعَلَ نورُ الدينِ يلومُ نفسَهُ مغضَباً ويقولُ : مَلَكَ ابنُ أيوبَ ...!!

وأرسلَ إليهِ صلاحُ الدّينِ يطلبُ منهُ أنْ يرسلَ إليهِ أهلَهُ وذوي قرابتِهِ ليكونوا عندَهُ في الدّيارِ المصريةِ، فأرسَلَهم إليه، واشترطَ عليهمُ السمعَ والطاعةَ له.

وهكذا ... استقرَّ أمرُهُ بمصرَ، وتوطدتْ دولتُهُ، وتمكّنَ سلطانُهُ، وكَمُلَ أمرُهُ، وقَويَتْ أركانُهُ.

وقد قالَ بعضُ الشعراءِ في ملكِ صلاحِ الدينِ، وقتلِ الوزيرِ شاور :

هيا لمصرَ بحورُ يوسفَ ملكُها ... بأمرٍ من الرحمنِ كان وقوتا

وماكان فيها قتلُ يوسفَ شاوراً ... يماثلُ إلاّ قتلَ داودَ جالوتا

وقعةُ الأحباش

لم يكدْ صلاحُ الدينِ رحمَهُ اللهُ تعالى يستقرُّ على كرسي الوزارةِ بعد وفاةِ عمِّهِ أسدِ الدينِ حتى ملك قلوبَ الرجال، وهانتَ عندهُ الدّنيا واستصغرها، وشكرَ نعمةَ اللهِ تعالى، وأصاب الناس من سحائب الخيرِ والفضل، وتطبيق المساواة والعدل ما لم يحصل سوى في عهد الخليفتين العادلين عمر بن الخطاب وعمر بن عبد العزيز رضي الله عنهما .

هذا ... والناس يهرعون إليه من كل جانب، ويغدون عليه من كل جهة، وهو لا يغلق بابه دون أحد، ولا يرد قاصدا، ولايعدم وافدا.

هذا ... والزمان لا يصفو لأحد، ولم يسلم من غدره وملماته أمير ولا وزير ولا ملك ولا سلطان، بل هؤلاء من أشد الناس تعرضا للغدر والمكائد والمؤامرات وصلاح الدين واحد من الذين تعرضوا للغدر والخيانة، فلقد ظهر في قصره رجل مؤتمن على أسرار الدولة، وكان حبيشيا يقال له الطواشي، فجعل يراسل الفرنج ويطلعهم على أسرار الدولة، وهو المؤتمن عليها، وموضع ثقة صلاح الدين وأمانته، فكان يطلب منهم أن يقدموا إلى الديار المصرية ليخرجوا منها الجيوش الإسلامية.

أرسل إليهم كتابا مع رجل من حاشيته، فصادفه في الطريق رجل أمين على دينه، غيور على بلده فارتاب من ذلك الرجل، وشك في أمره، فقبض عليه وقاده إلى صلاح الدين الذي استجوبه، فاعترف وأخرج له الكتاب، ففهم صلاح الدين ما فيه فكتمه.

فأحس الطواشي مؤتمن الدولة أن صلاح الدين قد اطلع على الأمر، فجعل يتوارى عن الأنظار، ويختبئ بين مكان وآخر، وبينما هو ذات يوم قد خرج إلى الصيد أرسل صلاح الدين إليه من قتله، وحمل إليه رأسه، وعلى أثر ذلك فقد ثقته بجميع الأحباش فعزلهم جميعا، واستناب على القصر عوضا عنهم بهاء الدين قراقوش، وأمره أن يطلعه بجميع الأمور صغارها وكبارها.

فغضب الأحباش، وجعلوا يحوكون المؤامرات بالليل والنهار، حتى اجتمعوا قريبا من خمسين ألفا، وجعلوا يغيرون على قصر صلاح الدين، ويشتبكون مع جنده في أكثر من موقعة ومشهد، فقتل من الفريقين عدد كبير، وكان العاضد ينظر إلى المعركة ويرقبها من قصره، وجعل يقذف جيش صلاح الدين من القصر بالحجارة، ووقعت عليهم بعض السهام، فقيل كان ذلك بعلم العاضد وأمره، وقيل لم يكن يعلم بذلك ... والله أعلم.

هذا ... وكان نورشاه شمس الدولة أخو صلاح الدين يقاتل مع جند أخيه وكان نور الدين قد بعثه ليشد أزره، فلقد أبدى يومئذ شجاعة فائقة، وأبلى بلاء حسنا، فأمر بإحراق منظرة العاضد، فاضطر الجند أن يفتحوا الباب وينادوا: إن أمير

المؤمنين يأمركم أن تخرجوا هؤلاء السودان من بين أظهركم ومن بلادكم، فقوي أمر الشاميين، وارتفعت معنوياتهم القتالية، في الوقت الذي ضعف فيه أمر السودان، وانهارت معنوياتهم، وكفوا عن القتال، وهربوا من أرض المعركة.

هذا ... وكان مركزهم ومقر اجتماعهم بالمنصورة[1]، فأرسل إليها صلاح الدين جيشا أحرق عليهم دورهم بباب زويلة، فهربوا أمام الجيش، وولوا مدبرين. فتبعوهم وقتلوا منهم خلقا كثيرا، ثم طلبوا الأمان، فأجابهم إلى ذلك، وأخرجهم إلى الجيزة، ثم خرج لهم شمس الدولة نورشاه أخو الملك صلاح الدين فقتل أكثرهم، ولم يبق منهم إلا القليل.﴿ ذلك بما قدمت أيديكم وأن الله ليس بظلام للعبيد ﴾[2].

﴿فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا إن في ذلك لآية لقوم يعلمون﴾[3] ﷺ.

---

[1] المنصورة : بلدة بمصر بين دمياط والقاهرة.
[2] الآية ٥١ من سورة الأنفال.
[3] الآية ٥٢ من سورة النمل.

معركة دمياط[1]

اشتدَّ غضبُ الفرنجِ لاستقرارِ أمرِ صلاحِ الدِّينِ في الوزارةِ وتثبيتِ حكمِهِ، وتوطيدِ أركانِ دولتِهِ في الديارِ المصريةِ، وانتصارِهِ على حُسّادهِ ومناوئيهِ، وقضائِهِ على عملائِهم وجواسيسِهم في قصرِهِ، وأيقنوا بأنَّهُ سوفَ يشكلُ عليهم خطراً شديداً، ويُخرجُهم نهائياً، ويقلعُ آثارَهم من كافةِ بلادِ العربِ والمسلمين ويقضي على نفوذهم ومصالحهم فيها لما رأَوا ما حصل له من القوة والمنعة والملك ، وتأييدِ الناسِ ومحبتِهم له.

فاجتمعوا مع الرومِ واتّفقوا على التحالفِ معهم على قتالِ صلاحِ الدِّينِ والقضاءِ على دولتِهِ، فجمعوا المجانيقَ وآلاتِ الحصارِ، وجهّزوا جيوشاً جرارةً زحفوا بها إلى الدّيارِ المصريةِ قاصدينَ دمياط، ومعهم ما يحتاجونَ إليهِ من آلاتِ حصارٍ وعدةِ قتالٍ، ومُؤنٍ كثيرةٍ لفترةٍ طويلةٍ، ومضَوا إلى مدينةِ دمياطَ فحاصروها وضيّقوا على أهلِها، وقتلوا الرجالَ والنساءَ والأطفالَ، ولم يميّزوا بين مقاتلٍ وأعزَلَ، أو بينَ شابٍ وشيخٍ وامرأةٍ وطفلٍ، وعاثوا فيها الفسادَ، وأهلكوا الحرثَ والنسلَ، وأظهروا كلَّ ما في نفوسِهم من حقدٍ وغلٍّ، وكيدٍ وعدوانٍ.

---

[1] دمياط : مدينة قديمة بين تنّيس ومصر على زاوية بين بحر الروم الملح والنيل، وهي ثغر من ثغور الإسلام. انظر معجم البلدان.

لقد جاؤوا إلى دمياطَ من البرِّ والبحرِ رجــــاءَ أنْ يملكـــوا الديارَ المصريةَ، وخوفاً منِ استيلاءِ المسلمين على بيتِ المقــدسِ، ولإبرازِ قوتِهم، واستعراضِ عضلاتِهم أمــــامَ صـــلاحِ الديـــنِ ليكسروا شوكتَهُ، ويخففوا من حماسهِ واندفاعِهِ، وليثبطوا مــــن قوتِهِ وهمّتِهِ، فيقعدَ عن قتالِهم، فيصفو لهمُ الجوّ، وينفتحُ أمامهمُ الطريقُ للغزوِ والاحتلالِ وتنفيذِ ما خطّطوا لهُ من السيطرةِ على البلادِ العربيةِ والإسلاميةِ كلّها.

ولكن صلاح الدين لهم بالمرصاد، فهو لم يكن من النـــوع الذي يلين، أو يتردد، أو يجبن، إنه من النوع الذي وقف نفسه للجهاد في سبيل الله، ومقارعة العدو مهما تكن قوته وشراسته، ومهما بلغت عدته وجبروته وغطرسته .

إنه في هذه الظروف الراهنة والحرجة لم يكن يتوقع مـــــن الفرنج هذا العدوان المفاجئ والسريع، وأن يكونوا بهذا اللـــؤم والغدر والوحشية، لذلك لم يأخذ الحيطة والحذر، لا سيما وأنه حديث عهد بالحكم، ولم يكن لديه من الجند ما يقف في وجه الفرنج ويردهم على أعقابهم، فلو كان لديه من الجند ما يكفي

لذلكَ لما تردَّدَ لحظةً واحدةً، ولما تركَ لهمُ الفرصةَ ليصلــوا إلى دمياطَ فضلاً عن أن يدخلوها، كما أنهُ كان في القاهرةِ الــتي تبعُدُ عن دمياطَ كثيراً، فتمَّ أمرُ اللهِ ليقضــيَ اللهُ أمــراً كــان مفعولاً.

ولكنْ لا بأسَ عليهِ فالعبرةُ بالخاتمةِ، والحكمُ للنتائجُ...!!

لقد كتبَ صلاحُ الدينِ إلى نورِ الديــنِ محمــود زنكــي يستنجدُهُ، ويصفُ لهُ الظروفَ السياسيةَ والعسكريةَ، وما حــلَّ بدمياطَ وأهلِها من هجومٍ غادرٍ وغاشمٍ وظالمٍ، وطَلَبَ منــهُ أن يُمدَّهُ بالمقاتلين لطردِ الغزاةِ الغادرين، وأكّدَ لهُ أنّهُ إنْ خرجَ مــن مصرَ خَلَفَهُ أهلُها بسوءٍ، وإنْ قعَدَ عن قتالِ الفرنجِ وتقاعسَ عن طردِهم أخذوا دُمياطَ وجعلوها معقلاً لهم يتقوّون بها على أخذِ مصرَ كلّها ومن ثمّ يزحفون إلى جميعِ بلادِ المسلمين يفعلــونَ بأهلِها ما يشاؤون.

فاستجابَ له نورُ الدّينِ فأمدَّهُ بجيوشٍ كثيرةٍ يتبعُ بعضُــها بعضاً، كانَ من بينهم الأميرُ نجمُ الدّينِ أيوبَ أبو صلاحِ الدّيــنِ ومعهُ أهلُهُ وأولادُهُ، فتلقّاه الجيشُ من مصرَ بالتحيةِ والتكــريمِ، وخرَجَ العاضدُ شخصياً لاستقبالِهِ إكراماً لهُ ولولــدِهِ صــلاحِ

الدينِ الذي فرحَ بمقدمِ أبيهِ وإخوتِهِ فرحاً شديداً، وتمّتْ لآلِ أيوبَ الغبطةُ والسرورُ، وجرى لهم بهذا اللّقاءِ ما جرى لنبي الله يوسفَ عليه السلام، من اجتماعٍ ولمِّ شملٍ بعدَ غيابٍ وافتراقٍ طويلين، ولقد سلكَ صلاحُ الدّينِ رحمَهُ اللهُ تعالى مع أبيهِ الأدبَ الرفيعَ والبرَّ الحسنَ الجميلَ، فتنازَلَ لأبيهِ عن كلِّ شيءٍ وألقى عليه لباسَ الحكمِ والوزارةِ، فأبى أنْ يلبَسها، وشكرَ ولدَهُ وقابل أدَبَهُ بأدبٍ مماثلٍ وقال له : يا ولدي، ما اختارَكَ اللهُ تعالى لهذا الأمرِ إلاّ وأنتَ كفءٌ لهُ، ولا ينبغي أنْ يتبدّلَ من الأمرِ شيءٌ، أو أنْ يغيّرَ موضعُ السعادةَ.

فولاّهُ صلاحُ الدينِ على خزائنِ المَالِ براً بهِ، واحتراماً لهُ، واعترافاً بفضلِهِ ومكانتِهِ.

خروجُ الفرنجِ من دُمياطَ

حين وصَلتِ الجيوشُ الشاميةُ التي أرسَلَها نورُ الدّينِ إلى مصرَ دعماً لصلاحِ الدّينِ، وضعا خطةً ذكيةً ومحكمةً لإيقاعِ الخوفِ والذعرِ في قلوبِ الفرنجِ لإشغالِهم عن مقاومةِ الجيوشِ الإسلاميةِ، ومن ثمّ توسيعُ رقعةِ القتالِ لإرباكِهم وتوزيعِ جيوشهم على جبهتين :

ذلك أنَّ نورَ الدّينِ قَصَدَ الكركَ[1] فحاصَرَها ليشغلَ بذلكَ قلوبَ الفرنجِ ويفاجئَهم فقصدَتْهُ جيوشُ الفرنجةِ من الساحلِ، فرحَلَ عنِ الكركِ، وقَصَدَ لقاءَهم، فلم يقفوا له، ولقد نجحَ في ذلك، إلاّ أنَّ خطتَهُ لم تكتملْ تماماً حينَ بَلَغَهُ وفاةُ مجدِ الدّينِ ابنِ الدايةِ بحلب[2] ، فقطعَ خطتَهُ وانشغَلَ بوفاةِ مجدِ الدينِ.

ولم يكدْ ينتهي من ذلك حتى بَلَغَهُ أمرُ الزلازلِ التي حدَثَتْ بحلبَ وخربَتْ كثيراً من البلادِ.

ثم بلغَهُ خبرُ موتِ أخيهِ قطبِ الدّينِ بالموصلِ، فأوقف كلَّ أعمالِهِ، وعلَّقَ جميعَ نشاطاتِهِ وسافَرَ من ليلتِهِ إلى الموصِلِ.

فكانتْ جميعُ هذه الأحداث مجتمعةً حائلاً دونَ تنفيذِ خطةِ نورِ الدّينِ رحمَهُ اللهُ تعالى كاملةً لإرباكِ الفرنجِ وإضعافِ قوّتِهم، وإشغالِهم عنِ الدفاعِ عن دُمياطَ.

أمّا صلاحُ الدّينِ رحمَهُ اللهُ تعالى فقد تجهّزَ له جيشٌ قويٌّ زحَفَ بهِ قاصداً الفرنجَ ليُخرِجَهُم من دُمياطَ بعدَ أن جهزَ

---

[1] الكرك: قلعة حصينة جداً في طرف الشام من نواحي البلقاء في جبالها بين أيلة وبحر القلزم وبيت المقدس، والكرك أيضا : قرية كبيرة قرب بعلبك . انظر معجم البلدان.

[2] حلب : مدينة عظيمة واسعة كثيرة الخيرات، أشهر من أن تعرّف ؛ وهي ثاني مدن الشام بعد دمشق، لكنها أكبر من دمشق مساحة، وسكانها أكثر عددا.

رجالهُ تجهيزاً كاملاً بالسّلاحِ والعتادِ والمؤنِ الرجـــالِ، وآلاتَ الحصارِ، وجعلَ جيشاً آخرَ وآلاتٍ أخرى احتياطيةً يســتعملُها وقتَ الحاجةِ وحينَ تدعو الضرورةُ.

فلمّا وصلَ إليها جعلَ من فورهِ يشنُّ عليـــهمُ الغـــاراتَ السريعةَ والخاطفةَ، فاستطاعَ بعضُ الجندِ أن يخترقوا صفـــوفَ العدوّ ويدخلوا المدينةَ، ويشتبكوا مع جنودِ العدوّ .

هذا ... وصلاحُ الدّينِ ومَنْ معهُ يشنّونَ عليهمُ الغاراتِ من خارجِ المدينةِ، والذين دخلوها يقاتلونهم من داخلِها، حتى أَنزَلَ اللهُ عليهم نصرَهُ، وخذَلَ عدوَّهم، وأخلوا دمياطَ وخرجوا منها خائبينَ بعدَ أن قُتِلَ منهم عددٌ كبـــيرٌ، وأُحْرِقَـــتْ مجانيقُـــهم، وتحطّمَتْ آلاتُهم، وأُخِذَت أموالُهم ومؤنُهُم، وأصيبوا بهزيمـــةٍ منكرةٍ لم ينالوا بمجيئِهم هذا سوى الذلِّ والخيبـــةِ والخســرانِ وفقدانِ الهيبةِ والإحباطِ، لا سيّما وقد بلَغَهم أنَّ السلطانَ نـــورَ الدّينِ قَدْ هجمَ عليهم في الكركِ وغيرِها كما تقدّمَ، وقتل عدداً كبيراً منهم وسبى كثيراً من نسائهم وأطفالِهم، وغنِـــم مغـــانمَ كثيرةً من أموالِهم، فجزاه اللهُ عنِ الإسلامِ والمســـلمين خـــيرَ الجزاءِ، ورحمَهُ اللهُ تعالى، وأسْكَنَهُ فسيحَ جنانهِ.

رؤيا صالحة

رويَ أنَّ نورَ الدينِ زنكي قبل إجلاءِ الفرنجِ عن دُمياطَ كان في جميعِ أوقاتِه لا يُرى إلاّ حزيناً مكلوماً، فأراد محبّوهُ والمقرّبون منهُ أن يُزيلوا عنْهُ مسحةَ الحزنِ التي لا تفارِقُهُ، ويحملوهُ على التبْسُّمِ فلم يفلحوا، حتى قرأ عليهِ أحدُ طلبةِ علمِ الحديثِ جزءاً من حديثٍ شريفٍ في التبسُّمِ، وطلَبَ منه أنْ يتسمَ، فامتنعَ من ذلك، وقال : إنّي لأستحي من الله أنْ يراني مبتسماً والمسلمونَ يحاصرُهمُ الفرنجُ بثغرِ دُمياطَ ...!!

ورويَ أنَّ إمامَ مسجدِ أبي الدرداءِ بالقلعةِ المنصورةِ رأى في تلك الليلةِ التي أجليَ فيها الفرنجُ عن دُمياطَ رسولَ الله ﷺ وهو يقولُ : سلّمْ على نورِ الدّينِ وبشّرْهُ بأنّ الفرنجَ قد رحلوا عن دُمياطَ.

قال : فقلتُ يارسولَ الله، بأيّ علامةٍ ...؟

فقال : بعلامةِ ما سجدَ يومَ تلِ حارم[1] وقال في سجودِه: اللهمَّ انصرْ دينَكَ، ومَنْ هو محمودٌ الكلبُ ...؟

---

[1] حارم : حصنٌ حصينٌ وكورة جليلة تجاه انطاكية . انظر معجم البلدان. وهي اليوم تابعة لمحافظة إدلب، تبعد عن مدينة حلب حوالي خمسة وستين كيلومتراً إلى جهة الغرب.

فلما صلى نور الدين عنده الصبح بشره بذلـــك وأخـــبره بالعلامة، فلما بلغ قوله : (من هو محمود الكلب ...؟) ســـكت من قوله استحياء وخجلا من نور الدين، فقال له نور الديـــن: قل ما أمرك به رسول الله ﷺ .

فقال له ذلك.

فقال : صدقت، وبكى نور الدين رحمه الله تعالى تصديقـــا بذلك، وفرحا به، ثم تأكدوا من الأمر فإذا هو كما أخـــبر في المنام.

وفاة العاضد صاحب مصر

واسمه عبد الله بن يوسف، ويكنى أبـــا محمــــد، ويلقـــب بالعاضد، والعاضد في اللغة : القاطع، وفي الحديث : (لايعضد شجرها) أي لا يقطع، وبه قطعت دولـــــة الفـــاطميين، وزال ملكهم عن مصر، وكانت سيرته كغيره من الخلفاء الفـــاطميين سيئة ومذمومة، كما سيأتي لاحقا.

ولقد كانت وفاة العاضد يوم عاشوراء سنة سبع وســـتين وخمسمائة، فحضر الملك صلاح الدين جنازته وشهد عـــزاءه، وبكى عليه وتأسف.

ولـمّا ماتَ العاضدُ دخَلَ صلاحُ الدّينِ رحمَهُ اللهُ تعالى قصرَهُ، واستحوذَ على ما فيه وأخرجَ منهُ أهلَ العاضِدِ إلى دارٍ أعدّها لهم، وأجرى عليهِمُ الأرزاقَ السنيةَ، والعطايا السخيةَ، عوضاً عما فاهَم من الخلافةِ، ثم أمَرَ صلاحُ الدينِ بقطعِ الخطبةِ للعاضدِ وإقامتِها للخليفةِ العباسي، وكانَ يوماً مشهوداً، فرحَ بهِ المسلمون فرحاً شديداً.

ولـمّا انتهى الخبرُ إلى الملكِ نورِ الدّينِ زنكي أرسَلَ إلى الخليفةِ العباسي يُعْلِمُهُ بذلك، فأُقيمتِ الأفراحُ ببغدادَ، وازدانَتْ بيوتُها وشوارعُها، وأُغْلِقَتِ الأسواقُ، وانشغَلَ الناسُ بأفراحِهِم، وألقيتِ الخطبُ والأشعارُ بهذهِ المناسبةِ السعيدةِ، وتسابقَ الشعراءُ وتنافسوا في التعبيرِ عن بهجتِهِم وسرورِهِم، بتوليةِ السلطانِ صلاحِ الدينِ، ونهايةِ الحكمِ الفاطمي، وتوحيدِ الدولةِ الإسلاميةِ، وفي ذلك يقولُ ابنُ العماد:

توفي العاضدُ الدعيُّ فما	يفتحُ ذوَ بدعةٍ بمصرَ فما
وعصرُ فرعونِها انقضى وغدا	يوسُفها في الأمورِ محتكما
قد طُفِئَتْ جمرةُ الغُواةِ وقد	داخ من الشرك كلُّ ما اضطرما
وصار شملُ الصلاحِ ملتئماً	بها وعقدُ السدادِ منتظما
لما غدا مشعراً شعارَ بني الـ	ـعباس حقاً والباطل اكتتما

واهتزَّ عطفُ الإسلامِ من جلـــلٍ ... وافترَّ ثغــرُ الإســلامِ وابتســـما
واستبشَرَتْ أوجُهُ الهدى فرحـــاً ... فليقــرعِ الكفــرُ ســنَهُ ندمـــا
عاد حريمُ الأعداء منتهكَ الـــــ ... حِمـى وفي الطغــاة منقســـما
قصورُ أهـــلِ القَصــورِ أخربهـــا ... عامرُ بيتٍ مـــنَ الكَمـــالِ سمـــا
أزعج بعد السَّـــكوتِ ســـاكنَها ... ومـــاتَ ذلاً وأنفُـــهُ رغَمـــاً

وممّا قيلَ من الشعرِ ببغدادَ يبشرُ الخليفةَ المستضيءَ بالخطبـةِ له بمصرَ وأعمالها، ولعلَّ قائلَ ذلكَ أبو الفضائلِ الحسينُ بـــنُ محمد ابنِ بركات وزيرُ الخليفةِ.

لِيهنِكَ مـــولايَ الفتـــوح تتـــابَعَتْ ... إليكَ به خوضُ الركـــائب تُوجِــفُ
أخذتَ بهِ مصراً وقد حـــالَ دونهـــا ... من الشركِ يأسٌ في لُها الحقِ يقـذفُ[1]
فعـــادَتْ بحمـــدِ الله باســـمِ إمامِنـــا ... تتيهُ علـــى كـــلِّ البـــلاد وتشـــرفُ
ولا غروَ إنْ ذلّتْ ليوســـفَ مصـــرُهُ ... وكـــانت إلى عليائـــهِ تتشـــــرفُ[2]
فشـــابَهَهُ خلقـــاً وخُلقـــاً وعفـــةً ... وكلٌّ عنِ الرحمنِ في الأرضِ يخلـفُ[3]
كشفتَ بها عـــن آلِ هاشـــم سـبةً ... وعـــاراً أبى إلاّ بســـيفِكَ يُكشَـــفُ

وقالَ بعضُهم يمدحُ صلاحَ الدّينِ وبني أيوبَ على ما فعلوهُ بديارِ مصرَ:

أبدتم مَن بـــنى دولـــةَ الكفـــرِ مـــن ... بني عُبيدٍ بمصرَ إنّ هذا هـــو الفضـــلُ

---

(1) لها الحق: جمع لُهوة، وهي العطية من أي نوعٍ كان.
(2) لاغرو : لاعجب ، والمراد بيوسف : صلاح الدين لأن اسمهُ يوسف، وقـــد يُـــرادُ بـــهِ المستنجد الخليفةِ العباسي، والتشرف : التطلع.
(3) فشابهه خلقا ... الخ أي أن يوسف المذكور يشابه يوسف عليه السلام بالخلق والخُلُق والعفة.

زنادقـــةٌ دعـــــاةٌ باطنيـــــةٌ مجوسٌ وما في الصالحين لهـــم أصـلُ
يســرون كفـراً يظـهرون تشـيعاً ليستروا ســابورَ عمَّـهُمُ الجـهلُ[1]

من همُ الفاطميون ...؟
وما نسبُهم ...؟

يدّعي الفاطميون أنّهم ينتسبونَ إلى عليّ بنِ أبي طالب ﷺ وأنّهم من أبناءِ فاطمةَ الزهراءِ رضي الله عنها، وليسوا كذلـك، إنّما ينسبون إلى رجلٍ يُقالُ لهُ عُبَيْدٌ ولذلك يُقالُ لهـم أيضـاً العبيديون، وكانَ عبيدٌ هذا اسمهُ سعيدٌ، وكانَ يهودياً حـداداً بسلمية[2]، فدخَلَ بلادَ المغربِ وتسمّى بعبيدِ الله، وادّعى أنّـهُ شريفٌ علويٌّ فاطميٌّ، وقالَ عن نفسهِ إنّهُ المهديُّ كما ذكـر ذلك غيرُ واحدٍ من العلماءِ والأئمّةِ[3]، بينما هـو في الحقيقـةِ مفترٍ كذّابٌ دعيٌّ، راجَ لهُ ما افتراهُ في تلـكَ البـلادِ، وآزرَهُ جماعةٌ من الانتهازيين والمنتفعين والمرتزقـةِ لتحقيـق بعـضِ المكاسِبِ والوصولِ إلى أعلى المراتِبِ، ولقد أسّسوا دولتَـهم في

---

(1) سابور : اسم موضع وهو أعجميٌّ معربٌ، ولعلّ أصل الفاطميين يعود إليه، وقولـه : ليستروا سابور : أي ليخفوا أصلهم.
(2) سلمية : بليدة من أعمال حماه بينهما مسيرة يومين، وكانت تعدّ من أعمال حمص. انظر معجم البلدان.
(3) البداية والنهاية : ج١٢ ، ص ٢٦٧ .

تونسَ على يدِ عُبيدِ اللهِ الذي تسمّى بالمهدي، وذلك سنة ٢٦٩هـ.

ولقدْ حاول العباسيون أن يشكّكوا في صحّةِ انتساب الفاطميين إلى علي بنِ أبي طالب ﷺ ، وعملوا في ذلك عدداً من محاضرِ الطعنِ في نسبِهم ووقعَ عليها الأشرافُ والقضاةُ والأعيانُ وعددٌ كبيرٌ من المقيمين تحتَ ظلِّ الدولةِ العباسيةِ، ولقدْ حفظَتْ لنا المصادرُ التاريخيةُ سجلاً كاملاً لأحدَ هذه المحاضِرِ الذي صدَرَ سنةَ ٤٠٢هـ وكلهُ طعنٌ في الفاطميين وفي نسبِهم واتّهامِهم بالكفْرِ والزندقةِ، وأنّهم أدعياءُ خوارجُ لانسبَ لهم في ولدِ علي بنِ أبي طالبٍ ﷺ ، وأنّ ما ادّعَوه من الانتسابِ إليهِ زورٌ وباطلٌ، وأنّ هذا الناجمَ[1] بمصرَ هو وسلفُهُ كفارٌ فساقٌ زنادقةٌ ملحدون معطلون ...[2]

ولقد طعنَ كثيرٌ من العلماءِ والمؤرّخين في نسبِهم ولم يذكروهم في كتبِهم مع الخلفاءِ، منهمُ الإمامِ السيوطي الذي علّلَ ذلك بعدمِ صحةِ إمامتِهم فقال : (ولم أوردْ أحداً من

---

(١) هو الحاكم بأمر الله الفاطمي.

(٢) الوثائق السياسية والإدارية للعهود الفاطمية والأتابكية والأيوبية للدكتور محمد ماهر حمادة.

الخلفاءِ العُبيديين لأنَّ إمامَتَهم غيرُ صحيحة لأمورٍ : منها : أنهم غيرُ قرشيين، وإنّما سمتهم بالفاطميين جهَلَةُ العوام ، وإلاّ فجدُّهم مجوسيٌّ.

قالَ القاضي عبدُ الجبّارِ البصري: اسمُ جدِّ الخلفاءِ المصريين سعيدٌ، وكانَ أبوهُ يهودياً حداداً نشابةً.

وقال القاضي أبو بكرٍ الباقلاّني : القدّاحُ جدُّ عُبَيدِ الله الذي يسمّى بالمهدي كان مجوسياً، ودخَلَ عُبَيدُ الله المغربَ وادّعى أنَّهُ علويٌّ، ولم يعرفْهُ أحدٌ من علماءِ النسبِ، وسمّاهُم جهلةُ الناسِ الفاطميين.

وقال ابنُ خلّكان : أكثرُ أهلِ العلمِ لا يصححون نسبَ المهدي عُبيدِ الله جدِّ خلفاءِ مصرَ، حتّى إنَّ العزيزَ بالله بنَ المعزِّ في أولِ ولايتِهِ صَعِدَ المنْبَرَ يومَ الجمعةِ فوَجدَ هناكَ ورقةً فيها هذهِ الأبياتُ :

إنّا سمعنـــا نســـباً منكـــراً يُتلى على المنبرِ في الجـــامعِ
إنْ كنتَ فيما تدّعي صادقـاً فاذكر أباً بعد الأبِ السـابعِ
وإنْ تردْ تحقيقَ مـــا قلتُـــهُ فانسُبْ لنا نفسَكَ كالطـائعِ
أولا دعِ الأنسابَ مسـتورةً وادخُلْ بنا في النسبِ الواسـعِ
فإنَّ أنسابَ بـــني هاشـــم يقصُرُ عنها طمعُ الطـــامعِ

وكتبَ العزيزُ إلى الأموي صاحبِ الأندلسِ كتاباً سبَّهُ فيـهِ وهجاهُ ، فكتَبَ إليهِ الأمويُّ : أمّا بعد .

فإنّكَ قد عرفتنا فهجوتَنا ، ولو عرفْناكَ لأجبْناكَ.

فاشتدَّ ذلك على العزيزِ، فأفْحَمَهُ عنِ الجوابِ، يعني أنّـــهُ دعيٌّ لاتُعرَفُ قبيلتُهُ .

قال الذهبي : المحققون متفقون على أنَّ عُبَيدَ الله المـــهديَّ ليسَ بعلويٍّ، وما أحسَنَ ما قالَ حفيدُهُ المعزُّ صاحبُ القــاهرة، وقد سألَهُ ابنُ طباطبا العلويُّ عن نسبِهِم، فجذَبَ نصفَ سـيفِهِ من الغمدِ وقال : هذا نسبي، ونثر على الأمـــراءِ والحـــاضرين الذهبَ وقال : هذا حَسَبي.

ومنها : أنَّ أكثرَهم زنادقةٌ خارجون عنِ الإسلامِ، ومنهم مَنْ أظهرَ سَبَّ الأنبياءِ، ومنهم مَنْ أباحَ الخمرَ، ومنهم مَنْ أمَرَ بالسجودِ لهُ.

وقال الذهبي كان القائمُ بنُ المهدي شراً من أبيهِ، زنديقاً، ملعوناً، أظهرَ سَبَّ الأنبياءِ.

وقال : كان العبيديون على ملةِ الإسلامِ شراً من التترِ.

وقال ابنُ خَلِّكانَ : وقد كانوا يدّعون علمَ المغيباتِ، وأخبارُهم في ذلك مشهورةٌ، حتى إنّ العزيزَ صعِدَ يوماً المنبرَ فرأى ورقةً فيها مكتوبٌ :

بالظلمِ والجَورِ قد رضينا وليس بالكفرِ والحماقهْ
إنْ كنتَ أُعطيتَ علمَ غيبٍ بيِّنْ لنا كاتبَ البطاقهْ

ومنها : أنَّ مبايعتَهم صَدرَتْ والإمامُ العباسيُّ قائمٌ موجودٌ سابقُ البيعةِ فلا تصحُّ ، إذ لا تصحُّ البيعةُ لإمامين في وقتٍ واحدٍ، والصحيحُ المتقدمُ.

انتهى ملخصاً من كتابِ تاريخِ الخلفاءِ للسيوطي، وإنّي حين أعرضُ هذه الوثائقَ أعرضُها كما وجدتُها، ولستُ مسؤولاً عن محتوياتِها، ولا يعني نقلي لها أنّ مضمونَها يعبّرُ عن رأيي أو معتقدي أو أي شيءٍ من هذا القبيلِ، كما أنّي لا أتبنّاها ولا أجزمُ بصحّتِها أو زيفِها.

أثرُ الخلافةِ الفاطميةِ

أُسِّسَتِ الدولةُ الفاطميةُ في تونسَ عام ٢٦٩هـ على يـدِ عُبيدِ اللهِ الذي تسمّى بالمهديِّ كما تقدّم، ثم استطاعَ حفيـدُهُ المعزُّ لدينِ اللهِ أن يحتلَّ مصرَ ويشرعَ في بناءِ مدينـةِ القـاهرةِ، وذلك في حدودِ سنةِ ٣٥٨هـ، ولقدِ استفادَ المعزُّ لدينِ اللهِ من ضعفِ الخلافةِ العباسيةِ في المشرقِ حينَ سيطرَ الأتـراكُ علـى مقدراتِ الأمورِ، وانقسمتِ الدولةُ الواحدةُ إلى عددٍ كبيرٍ مـن الدويلاتِ المتناحرةِ.

كما وأنّهُ استفادَ من ضعفِ حاكمِ مصرَ (كافورَ) وخلوِّها من شخصيةٍ قويةٍ تستطيعُ ضبطَ الأمورِ فيها، فزحَـفَ إليـها واحتلّها وجعلها مقرّاً للخلافةِ الفاطميةِ، وهذا ما يسمّى بالعهدِ المصري الذي استمرّ حتى نهايةِ الدولةِ الفاطميةِ على يدِ صـلاحِ الدينِ يوسفَ بنِ أيوبَ رحمَهُ اللهُ تعالى.

هذا ... ولستُ بصددِ استعراضِ عهدِ الفاطميين وتقييمِـهِ، ولكنِ المرادُ أخذُ فكرةٍ عامةٍ عنهُ لأنَّ ظهورَ صـلاحِ الديـنِ ووصولَهُ إلى الحكمِ كان فيهِ، كما أنّ نهايتَهُ كانتْ على يـدِهِ،

فلقد ظهرَتْ شخصيةُ صلاحِ الدينِ في عهدِ العـــاضدِ آخـــر الخلفاءِ الفاطميين الذي خلَفَهُ صلاحُ الديـــنِ وأنهـــى حكـــمَ العُبيديين. (ولقدِ امتاز عهدُ العاضدِ بالفوضى المتناهيـــةِ الـــتي شَمِلتْ كلَّ مرافِقِ الحياةِ تقريباً، وبـــالعجزِ المطلـــقِ للخلافـــةِ الفاطميةِ، وبالصراعِ الرهيبِ الذي دارَ بين الخليفةِ من جهـــةٍ، وبين وزرائهِ من جهةٍ ثانيةٍ، ثم بين الوزراءِ بعضِهِم بعضاً، ولقد دَخَلَ الصليبيون بعد هُنَيهةٍ طرفاً ثالثاً في هذا الصراع، وهـــدّدوا مصرَ تهديداً خطيراً كلَّ الخطورةِ حتى اضطرّ العـــاضدُ ووزراؤُه إلى الاستعانةِ بنورِ الدينِ وجيوشهِ ثلاثَ دفعات، ولكنّ نـــورُ الدينِ وقائدَ جيشِهِ أسَدَ الدينِ شيركوه لم يكونا ينظـــران إلى الأمرِ على أنّهُ مجرّدُ استعانةٍ، وإنّما وضعا أمامَ أعيُنهما هدفـــاً محدّداً ثابتاً هو إنقاذُ مصرَ من الخطرِ الصليبي المـــاحِقِ الـــذي يُهدّدُها، وهذا لا يتمُّ إلاّ بإكمالِ عمليةِ التوحيدِ الـــتي بدأهـــا عمادُ الدينِ زنكي وسار فيه شوطاً بعيداً ابنُهُ نـــورُ الديـــنِ، وأكمَلَها من بعدِه صلاحُ الدين.

ولكنَّ ذلكَ لا يمكنُ أنْ يتمَّ مع وجودِ ثلاثِ قوىً تمنعُ من ذلكَ: القوةُ الأولى الصليبيون، والقوةُ الثانيـــةُ قـــوةُ الـــوزراءِ

الفاطميين المتمثلةُ خاصةً بشاور وولدِه، وأخيراً الخلافة الفاطمية نفسُها.

أما الصليبيون فقد تمكّنَ أسدُ الدينِ شيركوه ومن بعدِه صلاحُ الدينِ من ردِّ عاديتهم عن مصرَ.

وأمّا الوزراءُ الفاطميون فقد دَخلوا في صراعٍ مريرٍ رهيب مع أسدِ الدينِ وصلاحِ الدينِ، وأخيراً تمكّنَ صلاحُ الدينِ من التحالفِ مع العاضدِ والقضاءِ على شاور وابنِهِ، وأصبحَ شيركوه أسدُ الدينِ وزيراً للعاضدِ، وبعد وفاتهِ حلَّ محلَّهُ في هذا المنصبِ ابنُ أخيهِ يوسفُ بن أيوبَ المعروفُ بلقبِهِ صلاح الدينِ.

وأخيراً صدرَ أمرُ نورِ الدينِ الحازمُ الذي لا رجعةَ فيه بإلغاءِ الخلافةِ الفاطميةِ إلى صلاحِ الدينِ، وصدف أنْ مات العاضدُ وبعدَ موتِهِ بأسبوعٍ واحدٍ أُلغيتِ الخلافةُ الفاطميةُ سنةَ ٥٦٧هـ وعادَتْ مصرُ إلى أحضانِ السنةِ.)[١]

---

[١] الوثائق السياسية والإدارية.

الفاطميون في الميزانِ

علمنا أن أصلَ الفاطميين لا يَمُتُّ إلى الإسلامِ بصلةٍ، ومبادئَهمُ الداعيةِ إلى تقديسِ الخليفةِ واعتبارِهِ معصوماً، وتكفيرَ كلِّ مَنْ خالَفَهُ إلى غيرِ ذلك من تعاليمَ ومعتقدات تخالفُ روحَ الإسلامِ وتعاليمَه الساميةَ، الأمرُ الذي يفسّرُ لنا سرعةَ زوالِ كلِّ أثرٍ لهذه الدولةِ، وعدمَ بقائها واستمرارِها، خاصةً وأنَّ آخرَ عهدِها كان مشحوناً بالخلافاتِ والصراعِ بين الوزراءِ على السلطةِ إلى جانبِ صراعِهم مع الخلفاءِ، ودسائسِ أهلِ القصرِ، والصراعِ مع الصليبيين الذي استمرَّ إلى آخرِ أيّامِهم.

ولكنْ من جهةٍ أخرى فقدْ كانَ للفاطميين الأوائلِ جهدٌ مشكورٌ في ردِّ الرومِ عنْ بلادِ الشامِ، كما أنّ لهم بعضَ الأثرِ في الصراعِ ضدَّ الفرنجِ في بلادِ الشامِ أيضاً .

ومَنْ يدري ...؟ فقد تكونُ هناك ظروفٌ قاسيةٌ حالَتْ دونَ تكوينِ حلفٍ إسلاميٍ مع الخلافةِ العباسيةِ يقفُ في وجهِ الصليبيين.

(ولقد كانتِ الدولةُ الفاطميةُ دولةً متسامحةً مع أهلِ الذمــةِ حتى أصبحَ عددٌ من الذميين وزراءَ في عهودِ عددٍ من الخلفــاء، كما وأنّها شجعتِ العلومَ والآدابَ والفنونَ والمكتبات خاصــةً كما فعلَ العزيزُ باللهِ والحاكمُ بأمرِ اللهِ، ولقد كانَ أوائلُ الخلفاء متحمّسينَ لنشرِ مذهبِهم ولذلكَ كان تسامُحُهم مع مخالفيــهم من أهلِ السنّةِ أقلّ بكثيرٍ من تسامحِهم مع أهلِ الذمّة، ولكـــنَّ متأخّري خلفائهم لم يعودوا يهتمّونَ إلاّ بالمنصبِ وأصبحـــتِ الدعايةُ للمذهبِ الفاطميّ عملاً تقليدياً.

كذلكَ حفظتِ الدولةُ الفاطميةُ علاقات خارجيةً جيدةً مع جيرانِها منَ الدولِ المسيحيةِ، فكان ذلك أحدَ عواملِ ازدهـــارِ التجارة.

وإنّ وجودَ بعضِ الوزراءِ الأقوياءِ في العصورِ الأخيرةِ مثـلَ الأفضلِ والمأمونِ البطائحي جلب شيئاً من الرخاءِ إلى ســكانِ مصرَ، على حينِ كان صراعُ الوزراءِ المتأخّرين سبباً في جلْــبِ الكوارثِ والخرابِ للدولةِ التي تلقتِ الضربةَ القاتلةَ النهائيةَ مــن يدِ نورِ الدينِ الشهيدِ سنة ٥٦٧هــ.)[1]

(١) المصدر السابق.

ولقد قالَ الشاعرُ المعروفُ باسمِ عرقلة يعبرُ عن فرحتِهِ بسقوطِ دولةِ العُبَيديين وتسلُّمِ صلاحِ الدّينِ زمامَ الأمور :

أصبحَ الملكُ بعد آلِ علي مشرّقاً بالملوكِ من آلِ شادي
وغدا الشرقُ يحسدُ الغرب للقومِ فمصرُ تزهو على بغداد
ماحووها إلاَّ بعزمٍ وحزمٍ وصليلِ الفولاذِ في الأكباد
لا كفرعونَ والعزيزِ ومَنْ كان بها كالخطيب والأستاذ

يعني بآلِ علي الفاطميين على زعمِهم، وليسوا كذلك، وكأنه يعني بالأستاذ، نوراً الأخشيدي ... واللهُ أعلمُ.

خلافٌ بين نور الدينِ وصلاح الدينِ

لم يكدْ صلاحُ الدينِ رحِمَهُ اللهُ تعالى يتسلّمُ مقاليدَ الحكمِ، ويبرزُ على الساحةِ بمصرَ كسلطان للمسلمين فيها، و لم تكدْ تتمهّدُ له البلادُ ويحظى بتأييدِ أهلِ مصرَ ومبايعتِهم بعد زوالِ دولةِ العُبيديين حتى ألغى عبارةَ (حيَّ على خيرِ العملِ) في الأذان، وأسقطَ عن أهلِ مصرَ المكوسَ والضرائبَ التي أعيتْهم وأثْقَلَتْ كواهِلَهُم، وقُرئَ المنشورُ بذلك على رؤوسِ الأشهاد يومَ الجمعةِ بعد الصلاةِ، وإذا كتابٌ يأتيهِ من نورِ الدينِ محمود

زنكي يأمرُهُ أنْ يتوجّهَ بالعساكرِ المصريةِ إلى بـــلاد الكـــرك، ليجتمعا هنالك ويضعا خطةً مشتركةً على المصالحِ التي يعـــودُ نفعُها على المسلمين، وذلك بعدَ أن غزا نورُ الدّينِ الفرنـــجَ في السواحلِ، وأنزَلَ بهم بأساً شديداً وضربَهُم ضربة قاصمـــةً، ثمّ أرادَ أن يُجهزَ عليهم فعزَمَ على محاصرةِ الكركِ، وكتـــبَ إلى صلاحِ الدّينِ أنْ يوافيَهُ هنالك.

فتوهّمَ صلاحُ الدّينِ من ذلكَ وخافَ أنْ يكونَ لهذا الأمـــرِ غائلةٌ يترتبُ عليها زوالُ ملكِهِ عن مصرَ، ولكنّهُ مع ذلكَ جـهّزَ جيشَهُ وغادَرَ بهِ مصرَ لتنفيذِ أمرِ نورِ الدينِ، ثمّ أسرَّ لهُ بعـــضُ أصحابهِ عن مؤامرةٍ يقومُ بها بعضُ العُبيديين لاستعادةِ دولتِـــهم، فخشيَ من ذلكَ ورجعَ إلى مصرَ وكتبَ إلى نورِ الدينِ يعتـــذر عنِ الوصولِ إليهِ لأمورٍ بَلَغَتْهُ عنْ بعـــضِ العُبَيديـــين، وأنّـــهم عازمون على الوثوبِ عليه، وأنّهُ يخشى على مصرَ أنْ تقـــعَ في أيديهم.

فعظُمَ ذلك على نورِ الدينِ وشقَّ عليهِ و لم يقبلِ اعتـــذارَهُ، وعزمَ على الدخولِ إلى مصرَ لينتزَعها مـــن صـــلاحِ الدّيـــنِ ويُخرجَه منها.

فلمّا بلَغَ هذا الخبرُ صلاحَ الدّينِ ضاقَ بهِ ذرعاً، وجمَعَ أهْلَهُ وفيهم أبوهُ نجمُ الدينِ أيوبُ، وخالُهُ شهابُ الدّينِ الحـــارميُّ، وابنُ أخيهِ تقيُّ الدّينِ عمرُ، وأخبرَهم عن عزمِ نورِ الدّينِ علـى دخولِ مصرَ وإخراجِهم منها، واستشارَهم بذلك، فلمْ يجبْـــهُ أحدٌ منهم بشيء.

فقامَ ابنُ أخيهِ تقيُّ الدّينِ فقال : إذا جاءنا قاتَلناهُ وصدَدْناه عنِ البلادِ، ووافَقَهُ بعضُهُم على ذلكَ.

فقام نجمُ الدّين أيوبُ مغضَباً فشتَمَهم، وأنكَـــرَ قولَـــهم واستعظَمَهُ، وكان ذا رأيٍ صائبٍ وعقلٍ راجحٍ وتقديرٍ لعواقبِ الأمورِ، فقالَ لتقيّ الدّينِ : اقعدْ مكانكَ وسَبّهُ.

وقال لصلاحِ الدّينِ : أنا أبوكَ، وهـــذا شـــهابُ الدّيـــنِ خالُكَ، أتظُنُّ أنَّ في هؤلاءِ كلِّهم مَنْ يحبُّكَ ويريدُ لكَ الخـــيرَ مثلَنا ...؟

قال : لا .

قال : واللهِ لو رأيتُ أنا وهذا خالُكَ شهابُ الدّينِ نـــورَ الدينِ لم يمكنّا إلاّ أن نترجّلَ له ونقبلَ الأرضَ بين يديه، ولـــو

أمَرَنا أنْ نضربَ عُنقَكَ بالسيفِ لفعلنا، فإذا كنّا نحنُ هكذا فما يكونُ غيرُنا ...؟ وكلُّ مَنْ تراهُ من الأمراءِ والعساكرِ لــو رأى نورَ الدينِ وحدَهُ لم يتجاسرْ على الثباتِ علــى سـرجهِ، ولا وسِعَهُ إلاّ النــزولُ وتقبيلُ الأرضِ بينَ يديهِ، وهذه البلادُ لــه وقد أقامَكَ فيها، وإنْ أرادَ عزلَكَ فأيُّ حاجةٍ له إلى المجــيء ...؟ يأمُرُكَ بكتابٍ مع نجّابٍ[1] حتى تقصدَ خدمتَهُ ويولّي بلادَهُ مَـنْ يريدُ.

فتفرقوا جميعاً، وكتبَ أكثرُهم إلى نورِ الدّين يُخبرونه بمـا حدَثَ.

ولما خلا أيوبُ بابنِهِ صلاحِ الدينِ قالَ لهُ : أنتَ جـاهلٌ قليلُ المعرفةِ، تجمعُ هذا الجمعَ الكثيرَ وتُطْلِعَهم علــى مـا في نفسكَ، فإذا سمعَ نورُ الدّينِ أنّكَ عازمٌ على منعِهِ عنِ البــلاد جَعَلَكَ أهمَّ الأمورِ إليه، وأولاها بالقصدِ، ولو قَصَدَكَ لم تــرَ معَكَ أحداً من هذا العسكر وكانوا أسلموك إليه، وأمّـا الآن بعد هذا المجلسِ فسيكتبونَ إليه ويعرفونه قولي، وتكتبُ أنــتَ إليهِ وترسلُ في المعنى، وتقولُ: أيُّ حاجةٍ إلى قصدي...؟ يجــيء

---

[1] النجاب : هو راكبُ الناقة السريعة.

نجّابٌ يأخذُني بحبلٍ يضعُهُ في عنقي، فهو إذا سمعَ هذا عدَلَ عن قصدِه، والأيامُ تندرجُ، والله في كلِّ وقتٍ في شأن، والله لو أرادَ نورُ الدّينِ قصبةً من قصبِ سكرنا لقاتلتُهُ أنا عليها حتى أمنعَهُ أو أُقتَلَ.

ففَعَلَ صلاحُ الدّينِ ما أشارَ به أبوهُ، وكتَبَ إلى نورِ الدّينِ يعتذرُ إليه، فقبلَ اعتذارَهُ، وذهبَ ما في نفسِهِ من حنق، ولانَ قلبُهُ ، وعادَ كلُّ شيءٍ طبيعياً كما كان، والحمدُ لله ربِّ العالمين.

رسالةٌ من صلاحِ الدّينِ إلي نور الدينِ

جاءتِ الأنباءُ إلى صلاحِ الدّينِ عن طريقِ نصارى الشام تنقلُ نبأَ وفاةِ السلطانِ نورِ الدّينِ، فأقلقَ النبأُ صلاحَ الدّينِ فقامَ من فورِهِ فكتبَ يستفسرُ عن صحتِهِ، ويطمئنُّ على سلامتِهِ، فقال :

وردَ خبرٌ من جانبِ العدوِّ اللّعينِ، عنِ المولى نورِ الدّينِ، أعاذَ الله تعالى فيهِ من سماعِ المكروه، ونوَّرَ بعافيتِهِ القلوبَ والوجوهَ، فاشتدَّ به الأمرُ، وضاقَ بهِ الصدرُ، وانقصَمَ بمادتِهِ

الظهر، وعزَّ فيهِ التثبتُ وأعوزَ الصبر، فإنْ كان والعياذُ بالله، قد تمّ، وخصَّهُ الحكمُ الذي عمَّ، فللحوادث تُدَّخَرُ النصال، وللأيامِ تُصطنَعُ الرجال، ومارَبَّتِ الملوكُ ممالكَها، إلاّ لأولادهـــا، ولا استودعتِ الأرضُ الكريمةُ البذرَ إلاّ لتؤديَ حقَّها حصادهـــا، فالله الله أن تختلفَ القلوبُ والأيدي فتبلغَ الأعـــداءُ مرادَهـــا، وتُعدمَ الآراءُ رشادَها، وتنتقلَ النعمُ التي تعبتِ الأيامُ فيها إلى أنْ أعطَتْ قيادَها، فكونوا يداً واحدةً، وأعضاداً متساعدةً، وقلوبـاً يحميها وِدٌّ، وسيوفاً يضمُّها غمـــدٌ، ولا تختلفـــوا فتنكلـــوا، ولاتنازعوا فتفشلوا، وقوموا على أمشاطِ الأرجلِ، ولاتـــأخذوا بأطرافِ الأنملِ، فالعداوةُ محدقةٌ بكم من كلِّ مكانٍ، والكفـــرُ مجتمعٌ على الإيمانِ، ولهذا البيتِ منّا مُناصرٌ لانخذُلُـــهُ، وقـــائمٌ لانسلمُهُ، وقدْ كانتْ وصيتُهُ إلينا سبقَتْ، ورســـالتُهُ عندنـــا تحققَتْ، بأنَّ ولدَهُ القائمَ بالأمرِ وســـعدَ الديـــنِ كمشـــتكينَ الأتابكَ بين يديه، فإنْ كانتِ الوصيةُ ظهَرتْ وقُبلَتْ، والطاعـــةُ في الغيبةِ والحضورِ أُدّيَتْ وفُعِلَتْ، وإلاّ فنحنُ لهذا الولدِ يدٌ على مَنْ ناداه، وسيفٌ على مَنْ عاداهُ، وإنْ أسفرَ الخبرُ عن معافـــاةٍ، فهو الغرضُ المطلوبُ، والنذرُ الذي يحلُّ على الأيدي والقلوبِ.

ثم تبيَّنَ كذبَ الخبرِ، ولم يحصلْ بعد ذلك خلافٌ بينـــهما، ولا ما يوجبُ النفرةَ والحمدُ لله ربِّ العالمين.

هذا ... ولم يزلْ صلاحُ الدينِ يحققُ العدلَ، ويبسطُ الخيرَ، وينشرُ الإحسانَ، ويُفيضُ على النّاسِ الفضلَ والإنعامَ، ويحظى بثقتِهم، ويفوزُ بمحبتِهم حتى غدا منهم موضعَ الروحِ من الجسدِ، وآثروهُ على كلِّ شيء، وأطاعوهُ في المنشطِ والمكرَه، وخرجوا معهُ يجاهدون في سبيلِ اللهِ خفافاً وثقالاً، لا يترددّون، ولا يتراجعون، ولا يشاقّونه من بعدِ ما تبيّنَ لهمُ الهدى، ولا يخالفونهُ في كلِّ ما أمرَ بهِ أو نهى، وكأنّهم تشبّهوا بأصحاب النبي ﷺ ، وأحيَوا سنَّته، وأعادوا مجدَهُ وسيرَتَهُ.

فلمّا تأكّدَ من ثقتِهم وولائِهم، واطمأنَّ إلى صدقِهم ووفائِهم خرجَ بهم للجهادِ في سبيلِ اللهِ، ومقارعةِ العدو الصليبي الذي احتلَّ البلادَ، وجاسَ خلالَ الدّيارِ، وعاثَ فيها الفسادَ، ونشَرَ بينِ أهلِها الخوفَ والذعرَ والاضطهاد، فلقيهم في معاركَ عديدة، وجولات كثيرة أسفرتْ عن مهارتِهِ القتاليةِ، وشجاعتِهِ النادرة، وقيادتِهِ الحكيمةِ، وشخصيتِهِ الفذّة، فلو أنَّ المجالَ يسمحُ لنا بتقصّيها لما بخِلنا بذلك، ولكنّي أرجأتُ ذكرَها للرسالةِ القادمةِ كيلا تخرجَ هذه الرسالةُ عنْ حجمها الطبيعي، إذْ أنَّ المقصودَ ذكرُ معركةِ حطّينَ، ولتكونَ هي خاتمةَ هذه الرسالةِ المتواضعةِ، فأقولُ بعونِ اللهِ تعالى :

بين يدي
معركةِ حطّين[1]

حدثَتْ معركةُ حطّينَ في أحرجِ فترة، وأقسى ظرفٍ مرَّ في حياة المسلمين، إذ كانَتْ حياتُهم تمورُ موراً شديداً بالأعباء وبالصِّراعِ وبالصِّعاب، فكانتِ البلادُ منقسمةً إلى دويلات كثيرةٍ متعاديةٍ ومتناحرةٍ، الأمرُ الذي سهّلَ على الأعداءِ أنْ يطمعوا بها ويقوموا بغزوها.

لقدِ انطلقَتْ جحافِلُ الصليبِ في قلبِ بلادِ المسلمين كالسيلِ الجارف تكتسحُ كلَّ ما تصادفُهُ بضراوةٍ وقسوةٍ ووحشيةٍ، ثم تخلّفُ وراءها الذعرَ والخوفَ والحرائقَ والدّمارَ ثم احتلّتْ سواحلَ الشامِ بكامِلِه، ثم سيطرَتْ على القُدْسِ ونابلسَ وعجلونَ والغورِ وغزةَ وعسقلانَ وكركَ الشوبكِ وطبريةَ وبانياسَ وصورٍ وصيدا وعكّا وبيروتَ وصفدٍ وطرابلسَ وإنطاكيةَ وجميعَ ما والى ذلك، إلى بلادِ إياسٍ وسيسٍ وآمدِ والرُّها ورأسِ العينِ، وبلادٍ شتّى غيرِ ذلك، وقتلوا من المسلمين عدداً كبيراً لا يُحصيهِ إلاَّ اللهُ تعالى، وسبَوا ذراريَ المسلمين من النساءِ والولدانِ مما لا يُحَدُّ ولا يُوصَفُ.

---

[1] تقع حطين بين طبرية وعكا، وتبعد عن طبرية نحو فرسخين، بالقرب منها قرية يُقالُ لها حيارة بها قبر النبي شعيب ﷺ ، قال ياقوت : وهذا صحيح لاشكّ منه . انظر معجم البلدان.

وحين دخلوا بيتَ المقدس دخلوهُ بأسوأ طـــالعٍ، فلقـــدْ أسرفوا في القسوةِ، وبالغوا في الوحشيةِ، فســفكوا الدمـــاءَ في البيوتِ، وبقروا البطونَ بحثاً عنِ الدنانيرِ في الأمعاءِ، واعتـــدوا على النساءِ، وقتلوا الأطفالَ، وبقروا بطونَ الحواملِ بصــورةٍ لم يشهدِ التاريخُ أبشعَ منها.

لقدِ اشتعلَ مرجلُ الحقدِ الصليبي منذ أن نما الإسلامُ وانتشرَ في شرقِ الأرضِ وغربِها بسرعةٍ مذهلةٍ، فدكَّ عروشَ الفـــرسِ والرومِ، وأسقَطَ تيجانَهم، وحطَّمَ كبرياءَهم، وقضـــى علـــى غطرستِهم.

لقدِ انطلقَ الإسلامُ لتحريرِ العربِ في الشامِ والعراقِ ومصر وشمالِ إفريقية من الاستعمارِ الفارســـي والرومـــاني، ونشـــرِ الإسلامِ في ربوعِ تلكَ البلادِ، ثمَّ لينتهيَ ببناءِ القاعدةِ الإسلاميةِ الوطيدةِ في الأندلسِ.

منذ تلكَ الفترةِ بدأتِ الحروبُ الصليبيةُ على الإسلامِ بكـلِّ الأساليبِ اللاإنسانيةِ، والممارساتِ الوحشيةِ، ثمَّ تجلَّتْ ضراوتُها ووحشيتُها في الأندلسِ عندما زَحَفَتْ على القاعدةِ الإســلاميةِ فيها، وارتكبَتْ من الوحشيةِ والبطشِ في تعذيـــبِ عشــراتِ

الآلافِ من المسلمين وقتلِهم هناك ما لم يعرفِ التاريخُ له نظيراً في دنيا الناسِ.

وكذلك تجلّتْ في الحروب الصليبيةِ في الشرقِ بمثلِ هـــذه البشاعةِ التي لاتتحرجُ ولاتخجلُ ولا تراعي في المسـلمين إلاّ ولا ذمّةً، ولا تخشى اللهَ ولا تخافَهُ من قريبٍ ولا بعيدٍ.

ولقدِ استمرَّ الأمرُ على هذا الحالِ إلى أن قيّضَ اللهُ تعـــالى لهذا الدينِ مَنْ رفَعَ لواءَهُ وحمى حياضَهُ وصانَ مقدّساتِهِ، ودافعَ عن حرماتِهِ ... إنهُ البطلُ المؤمنُ صلاحُ الدينِ الأيوبيُّ رحمَـهُ اللهُ تعالى ...!! الذي قاومَ الصليبيين، وتصدّى لهم، وطردَهم مـــن بلادِ المسلمين، وطهّرَ بيتَ المقدسِ من أرجاسِهم وفســـادهم، ودحرَهم، وكسرَ شوكَتَهم، وردّهم على أعقابِـــهِم خــائبينَ يجرون أذيالَ الذلِّ والخيبةِ والهزيمةِ، وأعادَ للإســـلامِ وجهَــه المشرقَ النضيرَ، وللمسلمين مجدَهُمُ القديمَ وكرامَتَهُمُ المســلوبةَ، وثأر لكلِّ بيتٍ من بيوتِ المسلمين أُصيبَ بمالٍ أو عـــرضٍ، أو جريحٍ، أو قتيلٍ، أو أسيرٍ.

بين صلاحِ الدينِ وبعضِ أمراءِ المسلمين

كانَ السلطانُ صلاحُ الدّينِ رَحِمَهُ اللهُ تعالى يحلمُ بتحريرِ كافةِ بلادِ المسلمين من الخطرِ الصليبي الذي حاقَ بالمسلمين وأحلَّ عليهم خطراً محدقاً، وفساداً دائماً، وشراً مستطيراً، وكان أكثر انتشاراً وتواجداً في بلادِ الشامِ، بينما هو أي صلاحُ الدّينِ مستقرٌ بمصرَ يقاومُ الصليبيين وغيرَهم من الطامعين فيها والمتكالبين عليها، والذي زادَ الأمرَ تعقيداً، والطينَ بلة موتُ السلطانِ نورِ الدّينِ محمود زنكي رحمَهُ اللهُ تعالى، المشهورُ بالشَّهيدِ، وبوفاتِهِ اختلفتِ الأمراءُ، وحارت الآراءُ، وقويَتْ شوكةُ الأعداءِ، وقصدوا بلادَ المسلمين من كلِّ جهةٍ، وعزم الصليبيون على غزو دمشقَ وانتزاعِها من أيدي المسلمين، لاعتقادهم أنَّ الجوَّ قد خلا لهم، والفرصةَ سنَحَتْ لمجيئهم فلم يبقَ من يقاومُهم أو يقفُ في وجههم بعدَ وفاةِ نورِ الدّينِ، فبرزَ إليهم الأميرُ شمسُ الدّينِ بنُ مقدمِ الأتابك، فلم يستطعِ الصمودَ أمامَهم فهادنَهم مدةً ودفعَ إليهم أموالاً كثيرةً مقابلَ عودتِهم، ولولا أنَّهُ هدّدَهم بقدومِ السلطانِ صلاحِ الدّينِ لما هادنوه.

فلمّا بلغَ ذلكَ صلاحَ الدّينِ عبّأَ جيشَهُ، وأصدَرَ أوامِـــرَهُ بالتجهيزِ فوراً للحربِ والاستعدادِ للرحيلِ إلى الشّامِ للقيامِ بأمرٍ عظيمٍ ومقدّسٍ، وكتبَ إلى أمراءِ الشّامِ وخاصةً شمسَ الدينِ بنَ مقدم يلومُهم على ما صنعوا من دفـــعِ الأمـــوالِ إلى الفرنـــجِ ومهادنتِهم، وأعلمَهم أنّهُ عازمٌ على السّفرِ إلى البلادِ الشـــاميّةِ ليحميها من عاديةِ المعتدينَ، ويدفَـــعَ عنـــها طمَـــعَ الغـــزاةِ والطامعينَ، فلم يحفِلوا بهِ وردّوا عليه كتاباً فيه غلظةٌ، وكلامـــاً فيه بشاعةٌ.

فلمْ يلتفِتْ إليهم، ولم يُثْبِطْهُ كلامُهم، ولم يَثْنِ من عزيمتِـــهِ ردُّهم وبشاعةُ جوابِهم رغمَ ما كان فيهِ من شغلٍ شاغلٍ لمـــا دهَمَهُ بمصرَ من اعتداءات كثيرةٍ ومستمرةٍ على سواحِلِها وعلى الحدودِ والثغورِ، ذلكَ أنّ الفرنجَ قدِموا إلى الساحلِ المصري في أسطولٍ كبيرٍ لم يَرَ الناسُ مثلَهُ كثرةً وعدداً وعُدّةً في المراكِـــبِ وآلاتِ الحربِ، ومعدّات الحصارِ التي غطّتْ وجهَ الماءِ، فلمْ يـــرَ الناسُ بحراً، وإنّما رأوا قطعاً حربيةً كثيرةً وهائلـــةً، ومراكـــبَ وآلاتٍ ومعداتٍ تسبحُ على ظهرِ الماءِ كأنّها حيتانٌ ضخمـــةٌ قادمةٌ بسرعةٍ مذهلةٍ إلى الساحلِ.

لقد قدِموا من صقليةَ إلى ساحلِ اسكندريةَ، فنصبوا المجانيقَ والدبّاباتِ ومعدّاتِ الهدمِ حولَ المدينةِ، فبرزَ إليهم أهلُها فقاتلوهم قتالاً شديداً، وصمدوا أمامَهم صموداً مشرفاً دفاعاً عن مدينتهم، وقاموا بخطةٍ ذكيةٍ وشجاعةٍ وفدائيةٍ، فأقدموا على حرقِ مجانيقِ العدوِّ ودبّاباتهِ ومعدّاتِه، وفاجؤوهُ به فأوقعَ اللهُ الرعبَ في قلوبهم، وشعروا بضعفٍ وخوفٍ شديدين، وارتفعَتْ معنوياتُ المسلمين، فانقضّوا عليهم وقتلوا منهم عدداً كبيراً، وجعلوهم يُخلونَ مواقعهم ويهربونَ في كلِ وجهٍ، فلمْ يكنْ لهم ملجأٌ إلاّ الغرقُ في البحرِ، أوِ القتلُ أوِ الأسرِ، ومن نجا منهم ركبوا بعضَ مراكبهم ومضَوا إلى بلادِهِم خائبينَ لم ينالوا شيئاً سوى الذلِّ والقتلِ والخوفِ والتشرّدِ، وكفى اللهُ المؤمنين القتالَ وكانَ اللهُ قوياً عزيزاً، وغنِمَ المسلمونَ ما تركوا من أموالٍ وخيولٍ وخيامٍ ومراكبَ وآلاتٍ ودبّاباتٍ. والحمدُ للهِ ربِّ العالمين.

وقعةُ أسوان[1]

والأمرُ الآخرُ الذي شغَلَ صلاحَ الدّينِ وأخّرَ مجيئَـــــهُ إلى الشّامِ ظهورُ رجلٍ يقالُ لهُ (الكنـــزُ) سمّاهُ بعضُهم عباسَ بـــنَ شادي، وكان من بقايا الفاطميين، وقدِ استقرّ بأسوانَ وجمَــعَ جموعَهُ فيها، وكانوا عدداً كبيراً من الرعاعِ والجهلةِ والمرتزقـــةِ ورعاةِ البقرِ والأغنامِ، وكانَ قد ورّطَهم في قتالٍ غيرِ شرعي ولا متكافئٍ حيثُ زعِمَ لهم أنهُ سيُعيدُ الدولةَ الفاطميةَ، ويقضــــي على دولةِ صلاحِ الدّينِ، فاجتمعوا معه على ذلك، فقصــــدوا (قوصَ)[2] وأعمالَها، وقتلوا طائفةً من أمرائها ورجالِها، فجــرّدَ إليهم صلاحُ الدّينِ جيشاً أمّرَ عليه أخاهُ الملكَ العادلَ أبا بكــرٍ الكرديَّ، فقاتلَهم وانتصرَ عليهم، وقتلَ الكنـــزَ، وأسرَ أهلَـــهُ، وقضى على تمرّدِهم، وأراحَ البلادَ والعبادَ منهم.

---

[1] أسوان : مدينة كبيرة في آخر صعيدِ مصر وأول بلاد النوبة على النيل في شرقيه. انظــر معجم البلدان.

[2] قوص : مدينة كبيرة عظيمة واسعة قصبة صعيد مصر بينها وبين الفسطاط اثنا عشـــر يوما. وهي محطة التجار القادمين من عدن، وهي شرقي النيل بينها وبين بحـــر اليمـــن خمسة أيام. انظر معجم البلدان.

دخولُ صلاحِ الدينِ دمشقَ

بإجلاءِ الفرنجِ عن ساحلِ الاسكندريةِ، والقضاءِ على تمـرّدِ الكنـزِ وأصحابهِ تفرّغَ السلطانُ صلاحُ الدينِ رحمَهُ اللهُ تعـالى إلى التوجّهِ إلى بلادِ الشّامِ لجمعِ شملِ المسلمين وتوحيدِ كلمتهم والقضاء على خلافاتهم للعمل يداً واحدة وقلباً واحداً لما فيـه مصلحة الإسلامِ والمسلمين، والوقـوفُ في وجـهِ الزحـفِ الصليبي، وطردِهم من البلدانِ الإسلاميةِ.

وفي أولِ شهرِ صفرَ سنةَ سبعين وخمسمائةٍ هجرية غـادرَ صلاحُ الدّينِ الدّيارَ المصريةَ بعدَ أن استنابَ عليها أخاهُ أبا بكرٍ قاصداً دمشقَ، فلمّا علمَ شمسُ الدّينِ بنُ مقدم نـائبُ دمشـقَ بمجيءِ صلاحِ الدّينِ كتبَ إليهِ يسترضيهِ ويستعطِفُهُ ويعتذِرُ لـهُ عمّا بدَرَ منهُ من مكاتبتِهِ بغلظةٍ وفظاظةٍ، ويستحثُّهُ على القدومِ إلى دمشقَ، ويَعِدُهُ بتسليمِها وجمعِ القادةِ والأمراءِ للاعتذارِ إليهِ، وتقديمِ الولاءِ والطاعةِ بين يديهِ.

وفي يومِ الاثنينِ آخرَ شهرِ ربيعِ الأولِ دخَـلَ السـلطانُ صلاحُ الدّينِ مدينةَ دمشقَ وسـطَ تهليـلِ وتكبـيرِ أهلِـها، وزغاريدهم، وإطلاقِ عباراتِ الترحيبِ معبّرين عن فرحتِـهم

وبهجتِهم بدخولِ الفاتحِ العظيمِ، واستقبلَهُ الأميرُ شمسُ الدّيـــنِ وقادةُ الجيشِ والوزراءِ والقضاةُ والأمراءُ، ومشَوا معــــه حـــتى انتهى إلى منـــزلِ والدِهِ فجلَسَ فيه يستقبلُ وفــــودَ المـــهنّئين وأعيانَ البلدِ يرحِّبونَ بهِ ويقدّمون لهُ ولاءهُم، ويظهرونَ لــــه محبّتهم ورغبتَهم في بقائِهِ معهم، يُبايعونهُ على الجهادِ في ســـبيلِ اللهِ، وقتالِ الصليبيينَ وإخراجهم من كافــةِ بـــلادَ المســـلمين ووَضعوا خَطةً عسكريةً أجمعَوا على تنفيذها، وأنّي لهم ذلـــك ...؟ والكلمةُ متفرقةٌ، والشملُ غيرُ ملتئم، والأمراء مختلفون قـــد أبطَرَتْهُمُ النعمةُ، وأطغاهُمُ الغنى، وأشغلتْهُمُ المناصبُ، فتشـــبّثوا بالعروشِ، وآثروا النومَ بالقصورِ، ومالوا إلى الدنيا فتمسّـــــكوا بها، وانشغلوا عن الواجبِ المقدسِ المنوطِ بهـــم، وتحوّلـــوا إلى دويلات كثيرة متعاديةٍ ومتناحرةٍ، ورفضَـــوا أن ينضمّـــوا إلى صلاحِ الدّينِ ويتّحدوا معهُ ليُشكّلوا قوةً واحدةً تفرضُ وجودها وسيطرَها في المنطقةِ وتستطيع دحرَ العدوِ بأيسرِ أمر.

لذلك قرّرَ السلطانُ صلاحُ الدّين أنْ يتملّكَ البلادَ كلّـــها ويُسقِطَ الملوكَ والأمراءَ ويجعَلهم تحت قيادتِهِ بالسيفِ إنْ أعيـــاهُ حملُهم على ذلك بالرفقِ واللّين، فنَهَضَ أولاً إلى حلبَ لما فيـــها من الفوضى والتسيُّبِ والتخبُّطِ، ومضى معتمداً على اللهِ تعـــالى وتوفيقِهِ ونصرهِ وتأييدِه، آملاً أن تُذلّلَ له الصّعابُ، وتُسهّلُ لـــه العقباتُ فهو لا يريدُ لهَمُ الشرَّ إنّما يريدُ لهُم الخيرَ والســــعادةَ

والسيادةَ والعزّةَ في الدنيا والآخرة، فإنْ همُ استجابوا لهُ كـانوا سعداءَ آمنين، وإلاّ فليأذنوا بحرب تُسقِطُ تيجانَهُم، وتَسْـحقُ أنانيّتَهم، وتعرضُ قصورَهم ومُلْكَهم للزوالِ والدمارِ.

سقوطُ حلبَ وحمصَ وحماة بيدِ صلاحِ الدّين

ومضى صلاحُ الدّينِ قاصداً مدينةَ حمصَ وهي أولُ مدينـةٍ تليه وهو في طريقِهِ إلى حلبَ بعدَ أنْ غادرَ دمشقَ واسـتنابَ عليها أخاهُ طغتكينَ بنَ أيوبَ، وكان يُلقَّبُ بسيفِ الإسـلامِ، فلمّا بلغَ حمصَ أخذها بكلِّ يسرٍ وسهولةٍ، ثم تابعَ طريقَـهُ إلى حماةَ فأخذها من صاحبِها عزّ الدينِ بنِ جبريلَ، وجَعَلَهُ سفيراً لهُ عند أمراءِ حلبَ، فسارَ إليهم يحذِّرُهم بأسَ صلاحِ الدّينِ وعزْمَهُ على توحيدِ البلادِ بالقوةِ إنْ لمْ يكونوا معهُ يداً واحدةً علـى العدوِّ المشتركِ.

فلمْ يلتفِتْ الحلبيونَ إلى تحذير سفيرِ صلاحِ الدّيـنِ، بـل سخِروا منهُ واعتقلوهُ ورموهُ بالسجنِ، ولقد أقلقَ تأخُّرُهُ صلاحَ الدّينِ، وحرّكَ في نفسهِ الشكَّ والريبَ فكتبَ إلى أمراءِ حلـبَ كتاباً يستفسرُ فيهِ عن سببِ تأخُّرِ سفيرِهِ، ويلومُهُم على ما هم

فيه من الاختلافِ وعدمِ الائتلافِ خاصةً في مثلِ هذه الظروفِ الحرجةِ التي يمرّون بها.

فاستهانوا به وردّوا عليهِ بكلامٍ سيّئٍ وبذيءٍ.

فزحفَ إلَيْهِمْ بجيشِهِ ليس غضباً لنفسهِ، ولا انتقاماً لما بـدَرَ منهم، إنّما غضباً للهِ تعالى وغيرَةً منهُ على الإسلامِ، وحرصـاً على لَمِّ شملِهم، وتوحيدِ كلمتِهم، وجمعِ صفوفِهم، وإنّهُ حـينَ يفعلُ ذلك إنّما يلتزمُ قولَ اللهِ تباركَ وتعـالى: ﴿واعتصموا بحبلِ اللهِ جميعاً ولاتفرّقوا﴾[1].

﴿وأطيعـوا اللهَ ورسـولهُ ولا تنـازعوا فتفشَـلوا وتذهـبَ ريحُكُم﴾[2]. ﷻ.

ولَمْ ينثَنِ صلاحُ الدّينِ عن عزْمِهِ ولم يتراجعْ عن قرارهِ، ولم يتردّدْ على ما أقدَمَ عليه، ومضى بكلِّ حزمٍ وعزمٍ حتى دخَـلَ حلبَ، فنوديَ بأهلِها أن يجتمعوا في موضعٍ يُقالُ لـهُ بـابُ العراقِ، فجعلوا يسوّفون ويماطلون، ويضعون شـروطاً غـيرَ معقولةٍ، والسلطانُ يصغي إليهم ويعدُهم بالتزامِها وتنفيذِهـا،

---

[1] الآية ١٠٣ من سورة آل عمران.
[2] الآية ٤٦ من سورة الأنفال.

ولقد نُفّذَتْ جميعُها فعلاً، ولكنهم ظلّوا على مخالفتِهم، فغـدروا بهِ وبيّتوا له الشرّ والعدوانَ، وانضمّ إليهمُ الأمـــراءُ المقدّمِــون والقادةُ العسكريون، وحرّضوا الناسَ على قتالِهِ، واستعملوا معهُ الغدْرَ والمكيدَة، فأرسلوا إليهِ عدداً من الفرسانِ ليقتلوهُ غـــدراً فلم يُفْلِحوا، ولكنّهم قتلوا عدداً من أمرائِهِ، فلمّا اطّلـــعَ علـــى حقيقةِ أمرِهم قتَلَهم جميعاً.

فلمّا يئِسوا من مقاومتِهِ ، أرسلوا إلى القومْصِ[1] الصليـــبي صاحبِ طرابلسَ يستنجدونَ بهِ، ويبذلون إليهِ أموالاً كثـــيرةً إنْ هوَ طرَدَ صلاحَ الدّينِ عنهم.

وكان هذا القُومْصُ قد أسرَهُ نورُ الدّينِ رحمَهُ الله تعـــالى، وبقي معتقلاً عندَهُ عشرَ سنينَ، ثم افتدى نفسَهُ بمائةِ ألفِ دينارٍ، وألفِ أسيرٍ من المسلمين، فكان لا ينسى ذلكَ لنورِ الدّينِ.

فلمّا بلغَهُ كتابُ الحلبيين قصدَ حمصَ ليأخذها من صـــلاحِ الدّينِ، فركِبَ إليه صلاحُ الدّينِ الذي أرسلَ سريةً إلى طرابلسَ فقتلوا وأسروا وغنِموا مغانمَ كثيرةً، وأظهروا للصليبيين القـــوةَ

[1] القومَص : هو الكونت عند الفرنجة واسمه ريموند ولعلّها رتبة عسكرية، أو تسمية لحاكم المدينة.

والبأسَ، وأثبتوا لهم أنّهم بالمرصادِ يرقُبونَ حركاتِهم وسكناتِهم، ثم ينقضّون عليهم في الوقتِ المناسبِ.

فلمّا علمَ القُومْص بغزوِ طلائعِ صلاحِ الدّينِ طرابلسَ من جهةٍ، ومجيئَهُ للقائِهِ من جهةٍ أخرى وفي وقتٍ واحدٍ نكصَ على عقبيهِ، وكرَّ راجعاً إلى بلدِهِ، ورأى أنّهُ قد أجابَهم إلى ما أرادوا منهُ، وقامَ بما وَعَدَهم ولكنّهُ لم يُوَفَّقْ، والحمدُ للهِ ربّ العالمين.

هذا ... وكان أمراءُ حلبَ قد كاتبوا صاحبَ الموصلِ سيفَ الدّينِ غازيَ بنَ مودودٍ أخا نورِ الدّينِ محمودِ بنِ زنكي، فبعَثَ إليهم أخاهُ عزَّ الدّينِ في عساكرَ كثيرةٍ، وانضمَّ إليهمُ الحلبيون، واستغلّوا غيبةَ صلاحِ الدينِ وانشغالَهُ بالقُومْص وتجديدِ عمارةِ قلعةِ حمصَ، فقصدوا مدينةَ حماةَ لاسترجاعِها من جماعةِ صلاحِ الدينِ.

فلمّا بلغَهُ خبرُهم سارَ إليهم في قلةٍ من الجيشِ، وكانوا جحافِلَ كثيرةً، فلما رأوا قلةَ مَنْ معهُ ، همّوا بمناجزتِهِ، واعتبروا ذلكَ فرصةً لهمْ لعلّهم يكسرونَهُ ويطردونهُ من الشامِ، فجَعَلَ يداريهم ويدعوهم إلى الصُّلحِ لعلّ الجيشَ يتبعُهُ، فرفضوا جميعَ

عروضِهِ، وأبَوا أنِ يصالحوهُ، وأصرّوا على القتال، فجعَلَ جيشَهُ كردوساً[1] واحداً، ثم قاتَلهم وصبر ومَنْ معهُ صَـــبراً جميـــلاً، فأيّدهُ اللهُ تعالى بابنِ أخيهِ تقيّ الدينِ عمرَ بنِ شاهنشاه ومعـــه أخوهُ فروخ شاه في طائفةٍ من الجيشِ، فما كاد الحلبيون يرونهم حتى ظنّوا أنّهم مقدمةٌ لجيشٍ كبيرٍ، فوقعَ الرعبُ في قلوبـــهم وولّوا هاربين، فأسروا منهم عدداً كبيراً، وأمرَ صلاحُ الدّيـــنِ مناديَهُ أنْ لا يتبعوا هارباً، ولا يذفّوا[2] على جريح، ثم أطلـــقَ سراحَ الأسرى، ومضى إلى حلبَ، فاجتمعوا إليهِ يعرضون عليهِ الصلحَ والسلامَ ويعطونهُ معرةَ النعمان، وكفر طاب، ومـلردين زيادةً على ما بيدِهِ من أراضي حمصَ وحماةَ علـــى أن يكـــفَّ عنهم، فقبل ذلكَ منهم، ورجع مؤيداً منصوراً، فلمّا كان بحماةَ وصَلَتْ إليهِ رسلُ الخليفةِ المستضيء بأمْرِ اللهِ يحملون إليه الخلـــعَ السنيةَ، والهدايا الثمينةَ، وتوقيعَ الخليفةِ بتوليتِهِ سلطاناً على مصرَ والشامِ، وذلكَ فضلُ اللهِ يؤتيهِ مَـــنْ يشـــاءُ واللهُ ذو الفضـــلِ العظيم.

وبذلكَ قوي سلطانُ صلاحِ الدّيـــنِ رحمـــهُ اللهُ تعـــالى، واتّسَعَتْ رقعةُ مملكتِهِ ، وتمهّدَتْ لهُ الأمورُ، وكـــثُرَتْ أمامَـــهُ الجيوشُ، وأصبَحَ على استعدادٍ لشنِّ إغاراتِهِ على الصليبيـــين،

---

[1] الكردوس : الخيل العظيمة، أو القطعة من الخيل العظيمة، والمراد جعل جيشه فرقة واحدة.

[2] يذفوا : يجهزوا

وإعلانِ حربٍ قويةٍ كفيلةٍ بكسرِ شوكتِهم وطردِهم من بـــلادِ المسلمين.

موقعةُ الكركِ

لم يكدْ صلاحُ الدينِ يتوّجُ سلطاناً على مصرَ والشـــامِ، وتدينُ له البلادُ، وتخضعُ له القادةُ والأمراءُ حتى وضعَ خطـــةً لمباغتةِ الفرنجِ، والقيامِ بحربٍ شاملةٍ تســـحقُهم ســـحقاً، وإذا بالأنباءِ ترفعُ إليهِ أن البرنس صاحبَ الكركِ قد عزمَ على غـــزوِ تيماءَ[1] من أرضِ الحجازِ ليَسْهُلَ عليهِ الوصـــولُ إلى مدينـــةِ رسولِ الله ﷺ ، فأرجأ صلاحُ الدينِ تنفيذَ خطتِهِ الحربيةِ ليتفرّغَ لأميرِ البرنسِ، ثم يعودَ إلى تنفيذِها.

وكانَ البرنسُ بعملِهِ هذا يريدُ أن يقطعَ علـــى الحجـــاجِ طريقَهُم، ويؤذيَ تجارَ المسلمين بما استطاعَ إليه مـــن ســـبيلٍ، فبلغَتْ أذيتهُ البرَّ والبحرَ، وخشيَ أهلُ المدينةِ من شرِّه، وخـــلفوا أنْ يستفحلَ أمْرُهُ فيدخلَ المدينةَ المنورةَ فينالَ من صاحِبها عليـه الصلاةُ والسلامُ، فأصدَرَ السلطانُ صلاحُ الدينِ أمرَهُ بـــالتصدّي

[1] تيماء : بلدة في أطراف الشام بين الشام ووادي القرى على طريق حجاج الشام ودمشق.

لهُ ومنعِهِ من تحقيقِ أهدافِهِ، فتصدّى لهُ الأميرُ حسـامُ الديـنِ لؤلؤ، فظفرَ بِهِ وبأصحابِهِ وقتلَ منهم مقتلةً عظيمةً، وانتصـرَ عليهِ في مواطنَ كثيرةٍ، ومعاركَ عديدةٍ، ومَنَعَهُ من الوصـولِ إلى مدينةِ رسولِ اللهِ ﷺ .

ولكنَّ السلطانَ صلاحَ الدينِ لم يطمئنَّ، ولم تهدأْ نفسُهُ قبل أن يغزوَ الكركَ ويظفرَ بالبرنسِ، فجَهَّزَ الجيشَ وجعَـلَ أخـاهُ العادل نائباً عنهُ في حلبَ، وصحِبَ معهُ ابنَ أخيهِ تقيَ الديـنِ عمرَ، ومضى بجيشِهِ إلى الكركِ فحاصَرها مدةَ شهرٍ كاملٍ، فلم يظفرْ منها بشيءٍ ولم يخرجْ إليه أهلُها، ولم تُفتَحْ له أبوابُها.

وبينما هو محاصرٌ الكرك إذْ بَلَغَهُ أنَّ الفرنجَ قدِ اجتمعوا لهُ، وجهّزوا جيوشاً عظيمةً ليمنعوهُ من دخولِ الكركِ، فكرّ راجعاً إلى دمشقَ وفيها جمعَ جموعَهُ، واستدعى الأمراءَ والفرسانَ مـن حلبَ ومصرَ وسنجارَ[1] والجزيرةِ وغيرِها أن يقدموا عليه لقتالِ الفرنجِ ، فأخذهم ومضى بهم إلى الكركِ فضربَ عليها حصـلواً محكماً، وثبتَ حولَها المجانيقَ لرمي الحجارةِ وكتلِ النارِ الملتهبةِ،

---

[1] سنجار: مدينة مشهورة من نواحي الجزيرة، بينها وبين الموصل ثلاثة أيام. انظر معجم البلدان.

وأصرَّ على فتحِها وتحريرِها من الفرنجِ، ذلــــك أنّـــهُ رأى أنَّ فتحَها أنفعُ لمصلحةِ المسلمين، وآمَنُ للحجاجِ من فتحِ غيرِهـــا، ذلك أنّ أهلَها يقطعون الطريقَ على الحجّاجِ، ويشكّلونَ خطـراً عليهم وعلى التجّارِ وفي فترةِ حصارِهِ للكركِ بلَغَهُ أنّ الفرنجَ قدِ اجتمعوا لهُ مرةً أخرى، فترَكَ الحصارَ وقصَدَهم، فدارَتْ بينــهُ وبينهم معركةٌ قويةٌ طاحنةٌ انتهتْ بهزيمــةِ الفرنــجِ، فتبعــهم بفرسانِهِ وجنودِهِ الشجعانِ فقتَلَ منهم مقتلةً عظيمة، ومنْ نجـــا منهم ضاع في شرقِ الأرضِ وغربِها لا يريـــدُ إلاّ أنْ ينجـــوَ بنفسِهِ.

هذا ... وأصدرَ صلاحُ الدينِ أوامــــرَهُ بالإغــارَةِ علـــى السواحلِ لخلوّها من المقاتلين ففعلـــوا، ثم دخلـــوا نـــابلس[1] وأغاروا على ما حولها من القرى والمزارِعِ فقتَلوا مَنِ اعتصَـــمَ فيها من جنودِ الفرنجِ، وسبَوا وغنموا مغانمَ كثيرةً، ثم رجعـــوا إلى دمشقَ متوّجين بالنصرِ والظفرِ وتأييدِ المولى ﷻ .

---

(1) نابلس : مدينة مشهورة بأرض فلسطين، بينها وبين بيت المقدس عشرة فراسخ.

معركةُ الموصل[1]

لم يكدْ صلاحُ الدينِ وجنودُهُ يدخلونَ مدينـــةَ دمشـــقَ، ويلتقطونَ أنفاسَهُم، ويأخذون قسطاً من الراحةِ، حـــتى وردَت الأنباءُ إلى صلاحِ الدّينِ أن صاحبَ الموصلِ قد نزَلَ إربـــل[2]، فبعثَ صاحبُها يستصرِخُهُ ويستنجدُ بهِ، فهبَّ من فورِهِ يُنجدُهُ، ومضى قاصداً الموصلَ، فلتقّاهُ الملوكُ من كلِّ جهةٍ، واجتمعـــوا حولَه يقدّمونَ لهُ ولاءَهم وطاعتَهم ويَعرضون عليه خدماتِهم، ومن بينهم نورُ الدينِ صاحبُ إربل الذي خضَعَتْ لهُ ملـــوكُ تلك الناحيةِ، ثم سارَ إلى الموصلِ فحاصَرَهـــا عـــدةَ أيـــامٍ ولم يفتحْها، ولو أراد ذلك لفعلَ ولكنهُ أرادَ إظهارَ هيبتِهِ ليمنعَ أهلَ تلكَ البلادِ من الاختلافِ والاقتتال، وليثبتَ لهم حرصَهُ علـــى وحدةِ المسلمين وجمعِهم تحت رايةِ الإسلامِ وقيادةٍ موحدةٍ.

فَجاءهُ أمراءُ الموصلِ وصالحوه على أنْ يكونوا من جنـــدِهِ متى نَدَبَهُم لقتالِ الفرنجِ، وتلكَ أمنيةُ صلاحِ الدينِ، وجلُّ مـــا يسعى إلى تحقيقِهِ.

---

[1] الموصل : مدينة قديمة مشهورة على طرف دجلة، ومقابلها من الجانب الشرقي نينوى، وسميـت بالموصل، لأنها وصلت بين الجزيرة والعراق، أو بين دجلة والفرات. انظر معجم البلدان

[2] إربل : قلعة حصينة، ومدينة كبيرة في فضاء من الأرض واسع بسيط، شبيهة بقلعة حلب إلاّ أنها أكبر وأوسع رقعة، وهي بين الزابين وتعد من أعمال الموصل بينهما مسيرة يومين.

وفي أثناءِ وجوده في تلكَ البلادِ لازَمَهُ مرضٌ شديدٌ أقْعَـدَهُ وأفقَدَهُ قوتَهُ ولكنهُ كان يكتمُ ذلك ويطويهِ في نفسهِ ولا يُظهِرُ منه شيئاً، حتى قويَ عليه وغَلَبَهُ فلم يستطعْ لـه دفعاً ولا مقاومةً، حتى بلغَ حرانَ[1] فخيّمَ هنالك من شدةِ الألمِ ، وشاعَ خبرُ مرضِهِ في البلدانِ، وخشيَ عليهِ المسلمون، وأخذَ الكفارُ والمرجفون يذيعون في البلادِ موتَ صلاحِ الدينِ، فجاء أخوه العادلُ من حلبَ بالأطباءِ والأدويةِ، فرآهُ في غايةِ الضعفِ، فأشارَ عليه أنْ يوصيَ، فقال : ما أُبالي وأنا أتركُ من بعدي أبا بكرٍ وعمرَ وعثمانَ وعلياً، وكان رحمَهُ اللهُ تعالى يقصدُ بأبي بكرٍ أخاهُ العادلَ، وبعمرَ أخاهُ تقيَّ الدّينِ صاحبَ حماةَ، وكانَ إذْ ذاكَ نائبَهُ في مصرَ وهو بها مقيمٌ، وبعثمانَ ابنَهُ العزيزَ، وبعلي ابنَهُ الأفضلَ.

ثم نذرَ لئن شفاهُ اللهُ من مرضِهِ هذا ليصرفَنَّ وقتَهُ وجُهْدَهُ لقتالِ الفرنجِ ، ولا يُقاتلُ بعد ذلك مسلماً، وأن يكرّسَ طاقتَهُ وهمّتَهُ لفتحِ بيتِ المقدسِ، ولو بذلَ في سبيلِ ذلكَ جميعَ ما يملِكُهُ

---

[1] حران: مدينة عظيمة مشهورة، بينها وبين الرُّها يوم وبين الرقة يومان، وهي على طريق الموصل والشام والروم . انظر معجم البلدان

من الأموالِ والأسلحةِ والرجالِ، وأن يقتلَ البرنسَ صاحبَ الكرك بيدِه ، لأنهُ نقضَ عهْدَهُ، وشتَمَ الرسولَ ﷺ ونالَ منه، وذلكَ أنهُ تعرَّض يوماً لقافلةٍ للمسلمين ذاهبةٍ من مصرَ إلى الشّامِ، فاسرَ الرجالَ وضربَ أعناقَهُم، واستلبَ ما في القافلةِ من مالٍ، وهو يقولُ : أينَ محمدُكم ؟ دعوهُ ينصركم.

ثمَّ منَّ اللهُ ﷻ على صلاحِ الدينِ بالشفاءِ من مرضِهِ الذي قالَ عنهُ : إنَّهُ كفارةٌ لذنوبهِ، وقال الناسُ : إنَّهُ نعمةٌ من اللهِ تعالى ليعلنَ حربَهُ على الفرنجِ ويُنزلَ بهم بأسَهُ ونقمَتَهُ .

وانتشرَتْ بشرى شفاءِ صلاحِ الدينِ في البلادِ، وفرحَ بها جميعُ العبادِ واستبشروا بها خيراً، وكتبَ الفاضلُ من دمشقَ إلى المظفرِ عمرَ : أنَّ العافيةَ الناصريةَ قدِ استقامَتْ واستفاضَتْ أخبارُها، وطلعتْ بعد الظلمةِ أنوارُها، وظهَرَتْ بعدَ الاختفاءِ آثارُها، وولّتِ العلّة، ولله الحمدُ والمنة، وطُفِئَتْ نارُها، وانجلى غبارُها وخُمِدَ شرارُها، وما كانت إلاّ فلتةً وقى اللهُ شرَّها وشنارَها، وعظيمةً كفى اللهُ الإسلامَ عارَها، وتوبةً امتحنَ اللهُ بها نفوسَنا، فرأى أقلَّ ما عندها صبرَنا، وما كان اللهُ ليضيعَ

الدعاءَ وقد أخلَصَتْهُ القلوبُ، ولا تتوقفُ الإجابةُ وإن سَــدَّتْ طريقها الذنوبُ، ولا ليخلفَ وعدَ فَرجٍ وقد أيسَ الصــاحبُ والمصحوبُ.

نعيٌّ زاد فيهِ الدهرُ ميمـا فأصبح بعد بؤســاهُ نعيما
وما صدَقَ النذيرُ به لأنّـي رأيتُ الشمسَ تطلُعُ والنجوما

وقدِ استقبلَ مولانا السلطانُ الملكُ الناصرُ غضةً جديــدةً، والعزمةُ ماضيةً حديدةً، والنشاطُ إلى الجهاد، والتوبــةُ لــربِّ العبادِ، والجنةُ مبسوطةُ البساطِ، وقدِ انقضى الحسابُ وجزنـا الصراطَ، وعُرِضْنا نحن على الأهوالِ التي لخوفِها كاد الجملُ يلجُ سَمَّ الخياطِ، ثم ركبَ السلطانُ من حرانَ بعد العافيةِ فدَخَــلَ حلبَ، ومنها انتقل إلى دمشقَ وقد تكامَلَتْ عافيتُهُ، وكانَ يوماً مشهوداً. انتهى من البداية والنهاية.

معركةُ حطينَ
سنة ٥٨٣هـ

بعدَ هذه الحروبِ الكثيرةِ، والمعاركِ الطاحنةِ التي خاضَــها السلطانُ صلاحُ الدّينِ وهو حريصٌ على توحيدِ بلادِ المســلمين رغم ما لقيَهُ من غدرٍ وخديعةٍ أحياناً، وتآمرٍ وعدوانٍ أحيانــاً

أخرى، ورغمَ ما أصابَهُ من مرضٍ أقعَدَهُ وحالَ بينهُ وبين مـــا يريدُ، رغمَ كلِ هذا عبّأَ جيشَهُ ومضى بهِ من دمشـــقَ في أوّلِ شهرِ محرم حتى انتهى إلى بصرى[1]، فأمرَ الجيشَ أن يـــترجّلَ، وأنْ تضربَ الخيامُ، وجلسَ هنالكَ ينتظرُ قدومَ الحجاجِ وفيــهم أختُهُ ستُ الشام وابنُها حسامُ الدينِ محمدُ بنُ عمرَ بنِ لاشـــينَ ليحميَهم من البرنسِ وجيشِهِ.

فلمّا وصلَ الحجاجُ سالمين، انطلق صلاحُ الدّيـــنِ بجيشِــهِ فنـــزلَ الكركَ وأمرَ بقطعِ ما حولَهُ من الأشجارِ، وأرسلَ الخيلَ والأنعامَ لترعى زرعَ أهلِ الكركِ وتأكلَ ثمارَهم، وبينما هــو في موقفِهِ هذا ينتظرُ قدومَ جيوشِهِ من مصرَ وحلبَ وغيرِهما مـــن الأمصارِ إذ جاءتْهُ الجيوشُ المصريةُ، وتوافَتْ إليـــهِ العســـاكرُ المشرقيةُ، وأرسلَ سريةً إلى معسكرِ الفرنجِ للتحرُّشِ بها، ولجسِّ نبضِها، فقتلَتْ وأسَرَتْ، وغنمَتْ ورجعَتْ فاستبشـــرَ بذلـــك خيراً، واعتبرهُ مقدمةً لفتحٍ كبيرٍ، ونصرٍ عظيمٍ، وكانَ جملةُ مـــن معهُ من المقاتلين اثني عشر ألفاً غير المتطوعين.

---

[1] بصرى : مدينة معروفة ومشهورة بالشام من أعمال دمشق، وهي قصبة كورة حوران.

فلما انتهتِ الأنباءُ إلى الفرنجِ بقـــدومِ صـــلاحِ الدّيـــنِ لمناجزتِهم نبذوا خلافاتَهم، وتصالحوا فيما بينهم، واجتمعـــوا لقتالِهِ، ثم انطلقوا بجدِّهم وحديدِهم حاملين راياتِ الطـاغوتِ، ومزينين صدورَهم بصليب الصلبوتِ في عددٍ كبـــيرٍ جـــداً لا يعلمُهُ إلاّ اللهُ، قيل كانوا ثلاثة وستينَ ألفاً، قد رفعوا رايـــاتهم، ونشروا أناجيلَهم، ورتّلوا أناشـــيدَهم، جـــاؤوا يحـــادّون اللهَ ورسولَهُ، يقاتلون في سبيلِ الطاغوتِ، ويصدّون عن سبيلِ اللهِ.

في الوقتِ الذي وقفَ فيهِ السلطانُ صلاحُ الدّينِ يخطـــبُ بجيشِهِ ويأمرُ جنودَهُ بالصـــبرِ والثبـــاتِ وتقـــوى اللهِ تعـــالى، وإخلاصِ النيةِ في جهادِ الأعداءِ، (الذين آمنوا يقاتلون في سبيلِ اللهِ والذين كفروا يقاتلون في سبيلِ الطاغوتِ فقاتلوا أولياءَ الشيطان إنَّ كيدَ الشيطان كان ضعيفا)[1].

و (كم من فئـةٍ قليلـةٍ غلبَتْ فئـةً كثـــيرةً بـــإذنِ اللهِ واللهُ مــع الصابرين) [2]. ﷺ.

وعلى الرغمِ من الفارقِ الكبيرِ بين الجيشين، حيثُ لاتكافؤَ بينهما في العدَدِ والعُدَّة، فلقد ألقى اللهُ ﷻ الرعبَ في قلـــوبِ الفرنجِ، وحسبوا أنّ المسلمين يفوقونهم عدداً وعدةً، فقال لهـــم

[1] الآية ٧٦ من سورة النساء.
[2] الآية ٢٤٩ من سورة البقرة.

القُومْصُ صاحبُ طرابلسَ وهو يخوفُهم : أحسبُ أنّ المسلمين يفوقوننا عدداً وعدّةً ...!!

فاعترضَ عليه البرنسُ صاحبُ الكركِ وقالَ لهُ : لا أشكُّ أنّكَ تحبُّ المسلمين وتخوفُنا كثرتَهم، وسترى نتيجةَ ما أقولُ لكَ.

وهكذا اختلفَتْ كلمتُهم، وضعُفَتْ قوتُهم، وأصبحَ بعضُهُم لبعضٍ بالمرصادِ، يرقبُ كلُ أميرٍ منهم حركةَ صاحبِهِ، ويفسرُ كلامَهُ تفسيراتَ شتىً، حتىّ فُقِدَت الثقةُ بينهم، وذلكَ تقديرُ العزيزِ العليم، ولاً شكَّ أنّ هذا لصالحِ المسلمين جملةً وتفصيلاً.

دخولُ صلاحِ الدينِ طبريةَ

في حين اختلفتْ كلمةُ الفرنجِ، وضعُفَتْ قوتُهم ازدادَ المسلمون قوةً ونشاطاً ورغبةً بلقاءِ العدوّ.

فنهضَ صلاحُ الدّينِ بجنودهِ الشجعانِ ففتحَ طبريةَ[1]، وتزوّدَ منها بالطعامِ والأمتعةِ واحتلَّ موقعاً استراتيجياً هاماً

[1] طبرية : بليدة مطلّة على البحيرة المعروفة ببحيرة طبرية، وهي في طرف جبل وجبل الطور مطل عليها، وهي من أعمال الأردن في طرف الغور، بينها وبين دمشق ثلاثة أيام، وكذلك بينها وبين بيت المقدس، وبينها وبين عكا يومان. انظر معجم البلدان.

فسيطر على البحيرةِ ليستفيدَ من مائِها ولا يستفيد منها الفرنـجُ قطرةً واحدةً، تماماً كما حصلَ للمسلمين يومَ بـــدرٍ، حيـــثُ وقَفَ رسولُ الله ﷺ في العدوةِ الدنيا ليسقيَ أصحابَهُ من مـــاء بدرٍ، ويحولَ بين المشركينَ وبينَ الوصولِ إلى الماء، ولا شكَّ أنَّ لهذا الأميرِ تأثيراً سلبياً للفريقِ البعيدِ عنِ الماءِ خاصةً في أشـــهرِ القيظِ حيثُ الحرُّ وحرارةُ الشمسِ اللاهبةِ، فلقَدْ حدَثَتْ هـــذه المعركةُ في شهرِ تموزَ وفي أوجِ اشتدادِ الصيفِ.

وفي صبيحةِ يومِ الجمعةِ الرابعَ عشرَ من شهرِ ربيعِ الآخـــرِ سنةَ ثلاثٍ وثمانين وخمسمائةٍ كان خروجُ صلاحِ الدِّينِ مـــن دمشقَ إلى طبرية، وكان كثيراً ما يقصدُ لقاءَ العـــدوِّ في يـــومِ الجمعةِ عندَ الصلاةِ تبرّكاً بدعاءِ المسلمين والخطباءِ على المنـــابرِ حيثُ ساعةُ إجابةِ الدّعاء.

ثم تحوّلَ صلاحُ الدّينِ من بحيرةِ طبريةَ فوقَفَ على ســـطحِ الجبلِ ينتظرُ قدومَ الفرنجِ، فلم يأتوا، ولم يتقدّموا إليهِ خطـــوةً واحدةً، فلمّا رآهم لا يتقدّمون إليه نزَلَ إلى قريةِ طبريةَ فاحتلّها في ساعةٍ واحدة، وقتَلَ المقاتلين وأسر، وسبى، وحرق، فلمّا بلغَ العدوَّ ما جرى في طبريةَ فلقوا لها وارتحلوا نحوَها فلمـــا علـــمَ

صلاحُ الدّينِ بذلكَ تركَ على طبريةَ مَنْ يحاصرُ قلعتَها، ولحـــقَ بالعدو فالتقى بهِ على سطحِ جبلِ طبريةَ الغربي منها، وذلـك في يومِ الخميسِ الثاني والعشرين من شهرِ ربيعٍ الآخرِ، وحالَ الليلُ بين الفريقين اللذين باتا في أهبةٍ تامةٍ، وترقبٍ شـــديدٍ، وكـــل منهما متحفزٌ يرقبُ تحركاتِ خصمِهِ، منتظرٌ بـــزوغَ الفجـــرِ للانقضاضِ عليهِ وتوجيهِ ضربةٍ قاضيةٍ تشلُّ حركتَهُ، وتجعلُـــهُ عاجزاً عن المقاومةِ ومتابعةِ المعركةِ ... فلْننتظرْ ...!!

بدءُ القتال

وفي صبيحةِ يومِ الجمعةِ الثالثَ والعشرين من الشهرِ نفسـهِ التقى الجيشان، وتصافّا للنـــزالِ، وقد أسفرَ وجهُ الإيمانِ، واغبرَّ وأقتمَ وأظلمَ وجهُ الكفرِ والطغيانِ، وبـــدأ القتـــالُ، والتحـــمَ الفريقان، وتنازلَ الفرسانُ، وتصايحَ المسلمون : أحدٌ ... أحـدٌ، وحميَ وطيسُ المعركةِ، واشتدَّ أوارُها، وضاقَ الخناقُ بـــالفرنجِ وهم في أرضِ المعركةِ يتساقطون، كأنّهم يُساقونَ إلى المـــوتِ وهم ينظرونَ، وقد أيقنوا بالهلاكِ، وفرسانُ المسلمين ينقضّـــونَ عليهم من هنا وهناك، فشعروا بالويلِ والثبورِ وأدركوا أنّـــهم عمّا قليلٍ سيصبحونَ من أهلِ القبورِ.

ولم تزلِ الحربُ تضطرمُ، والفارسُ مع قرنهِ يصطدمُ، فلم يبقَ إلاّ القليلُ للنصرِ والظفرِ، ووقوعُ الشرِّ والوبالِ على مَنْ كفرَ، حتى منَعَ ذلكَ دخولُ الليلِ الذي خيَّمَ على الفريقين بظلامِهِ، وباتَ كلُّ واحدٍ من الفريقين في سلاحِهِ إلى صبيحةِ يومِ السبتِ، وكان المسلمون قد تحقّقوا أنَّ مِنْ ورائِهم نهرَ الأردنَ، ومِنْ أمامِهمُ العدوّ، وأنّهُ لا يُنجيهم إلاّ الصبرُ والثباتُ وإخلاصُ النيةِ في الجهادِ في سبيلِ اللهِ، فحملوا على عدوّهم من كلِّ جهةٍ، وانقضّوا على القلبِ، وصاحوا صيحةَ رجلٍ واحدٍ أفْزَعَتِ العدوَّ، وألقَتِ الرعبَ في قلوبهم، وارتفعَتِ الشمسُ وسطَعَتْ حرارتُها على وجوه الفرنجِ، واشتدَّ الحرُّ، وأصابَهُم العطشُ، وكان العشبُ تحتَ أقدامِ خيولِهم قد صارَ هشيماً، فكانَ ذلك نذيرَ شؤمٍ لهم إذ أنَّ صلاحَ الدّينِ أمرَ جنودَهُ أنْ يرموا بالنفطِ على العشبِ، ويتبعوه بالنارِ، فتأجج العشبُ ناراً تلظى تحت سنابكِ خيولِهم، فاجتمعَ عليهم حرُّ الشمسِ، وحرُّ العطشِ، وحرُّ النارِ، وحرُّ السلاحِ، وحرّ رشق النبالِ، وضربِ السيوفِ، وطعنِ الرماحِ، فكانتِ الطامةُ الكبرى، والخسارةُ العظمى، والهزيمةُ النكراءُ البشعةُ، وكان حقاً على اللهِ نصرُ المؤمنين.

الهزيمة

فلما أحسّ القومْص[1] بالهزيمةِ والخذلان، أخلى موقعَهُ وهربَ من المعركةِ منذ أحداثِها الأولى وقصدَ مدينةَ صور[2]، فتبعهُ جماعةٌ من المسلمين فأُفلِتَ منهم، وكفى اللهُ المؤمنين شرَّهُ.

هذا ... وأحاطَ المسلمونَ بالفرنجِ من كلِّ جانب، وأثخنوهم بالسيوفِ والرّماحِ، ورمَوْهم بالسّهامِ، وسقَوهمْ كأسَ الحمامِ، فأعطوهم ظهورَهم وهربوا أمامَهم وقد أصبحوا في هروبِهم هذا فرقتين : فرقةٌ تبعها أبطالُ المسلمين فلم ينجُ منها أحدٌ وفرقةٌ اعتصمتْ بتلٍّ يقالُ لهُ تلُّ حطينَ، وهي قريةٌ يقالُ إنّ عندها قبرَ النبي شعيب عليه السلام ، فحاصرَها المسلمون وضيّقوا عليهم، وأشعلوا حولَهُمُ النيران، حتى اشتدّ بهمُ العطشُ، ونالَ منهمُ الخوفُ، وخيّمَ عليهم شبحُ الموتِ، وكادوا يستسلمون للأسرِ خوفاً من القتلِ لشدةِ ما أصابَهم من الرعبِ واليأسِ من النجاةِ ، فمنِ استسلمَ منهم وقعَ أسيراً ونجا من القتلِ، ومَنْ أبى قُتِلَ ذليلاً مهاناً.

---

[1] القُومْص : هو الكونت كما تقدم واسمهُ ريمونד صاحبُ طرابلس.

[2] صور : مدينة مشهورة مشرفة على بحر الشام داخلة في البحر مثل الكف على الساعد بينها وبين عكا ستة فراسخ، وهي إلى الشرق من عكا. انظر معجم البلدان.

ولقد قتل منهم في هذه المعركة ثلاثون ألفا ، وأسر ثلاثون ألفا آخرون.

قال ابن شداد صاحب سيرة صلاح الدين : ولقد حكى لي من أثق به أنه رأى بحوران شخصا واحدا معه نيف وثلاثون أسيرا قد ربطهم بطنب خيمة لما وقع عليهم من الذل والخذلان.(١)

وباع بعضهم أسيرا بنعل ليلبسها في رجله، وجرت أمور لم يسمع بمثلها إلا في زمن الصحابة والتابعين ﷺ .(٢)

ولقد أسر جميع قادة الفرنج وملوكهم وهم : ملوك عكا(٣)، وكفرنكا(٤)، والناصرة(٥)، وصور، والكرك، وغيرهم، أما القومص ريموند صاحب طرابلس فقد هرب كما تقدم وكان مصابا بجروح مات على أثرها بعد وصوله إلى طرابلس.

وغنم المسلمون غنائم كثيرة تركها الفرنج الهاربون، وكان فيها صليبهم الذي يقولون عنه: إنه الصليب الأعظم، وهو

---

(١) وفيات الأعيان ج٧ ، ص١٧٦ .
(٢) البداية والنهاية.
(٣) عكا: بلد على ساحل بحر الشام من أرض فلسطين، والعكة: الرملة حميت عليها الشمس.
(٤) كفرنكا: لم يذكرها ياقوت في معجمه، ولعلها بأرض فلسطين إذ أنها ذكرت مع عكا والناصرة وهما من أرض فلسطين كما هو معلوم.
(٥) الناصرة: قرية بفلسطين بينها وبين طبرية ثلاثة عشر ميلا.

الذي يزعمونَ أنّهُ صُلِبَ عليه المصلوبُ، وقد غلّفوه بالذهبِ الخالِصِ، واللآلئ الثخينةِ، والجواهرِ النفيسةِ، وقد وضَعه السلطانُ صلاحُ الدينِ بين الغنائمِ، والحمدُ للهِ الذي صدقَ وعدَه، ونصرَ عبدَه، وأعزَّ جندَه، وهزَمَ الأحزابَ وحدَه.

الخاتمة

انتهت معركةُ حطينَ المظفرةُ بنصرٍ ساحقٍ للمسلمين، وهزيمةٍ ماحقةٍ ومنكرةٍ للفرنجِ الصليبيين.

ولسوف تبقى هذه المعركةُ الخالدةُ حيّةً في نفوسِ العربِ والمسلمين يفخرون بها، ويتغنّون ببطولاتها وأمجادها إلى يومِ القيامةِ، وحُقَّ لهم أن يتغنّوا بها لأنها من صنعِ الآباءِ والأجدادِ العظامِ الذين بقيَتْ ذكراهم وستبقى غُرَّةً في جبينِ التاريخ.

لقدِ انتهتِ المعركةُ الخالدةُ، ووضَعَتِ الحربُ أوزارَها، وأمرَ السلطان صلاحُ الدينِ رحمَهُ اللهُ تعالى بضربِ مخيّمٍ عظيمٍ، ونصبِ سريرِ المملكةِ فجلسَ عليهِ عزيزاً كريماً، منصوراً مظفراً، وجيءَ بالأُسارى مقيدين بالسلاسلِ والأغلالِ، فأُوقفوا بين يديه أذلّاءَ صاغرين، منكسين أعناقَهم مطأطئينَ رؤوسَهم، وقد علتهم المهانةُ ، ولبستهُمُ المذلةُ، وإذا وجوهُهُم مغبرةٌ، ترهقُها قترةٌ، أولئك همُ الكفرةُ الفجرةُ.

ثم أمرَ صلاحُ الدّين بضربِ أعناقِ جماعةٍ كانوا قد أساؤوا للمسلمين، وذكر الناسُ عنهم أموراً فاسـدةً كثيرةً، هـذا والأُسارى بين يديهِ، ولَم يتركْ أحداً منهم ممنْ كان يذكرُ الناسُ عنهُ شراً إلاّ أمر بقتلِهِ.

ثمّ جيءَ بملوكِهم فأجلِسوا بين يديهِ، وأرنـاطُ صـاحبُ الكركِ معهم، وإنّ هذا الأخيرَ له حسابٌ خاصٌ وجدٌّ عسير.

وجيءَ بشرابٍ مثلّجٍ فوضِعَ بين يدي السـلطانِ صـلاحِ الدينِ فشربَ منهُ، ثمّ أعطِيَ أحدُ ملوكِ الفرنجِ فشربَ منـهُ، ثم أعطيَ أرناطُ برنسُ الكركِ فأخذهُ فغضبَ صلاحُ الدّينِ وقـال لهُ: إنما أعطيتُكَ ولم آذنْ لكَ أنْ تسقيَهُ، هذا لا عهدَ لهُ عندي، ثم قامَ مغضباً فدخلَ خيمةً داخلَ تلك الخيمةِ فاستدعى أرنـاطَ صاحبَ الكركِ ، فلما أوقفَ بين يديهِ دعـاهُ إلى الإسـلامِ، فامتنَعَ، فقال له: نعم، أنا أنوبُ عن رسولِ الله ﷺ في الانتصارِ لأمتهِ، ثم قتَلَهُ بيدِهِ، لأنّهُ أقسَمَ أنْ يقتُلَهُ بيدِهِ، وأرسلَ برأسِهِ إلى الملوك في الخيمةِ، وقالَ لهم : إنّ هذا تعرَّضَ لسبِّ رسـولِ الله ﷺ وكان أرناطُ وغيرُهُ قد مضى عليهم عدةُ أيامٍ لم يذوقوا فيها

الماءَ، ولم تُبَلَّلْ شفاهُهُمْ بقطرةِ ماءٍ واحدةٍ، لأنَّ المسلمين كانوا مسيطرين على بحيرةِ طبريةَ ينتفعون من مائِها في حين لم ينتفعِ الفرنجُ منها بشيءٍ.

ولقد غضبَ صلاحُ الدّينِ حينَ أُعطِيَ أرناطُ كوبَ الشراب، ثم منعَهُ منهُ لأنَّ من عادةِ العربِ وكريمِ أخلاقِهم أن الأسيرَ إذا أكلَ أو شربَ مِنْ مالِ مَنْ أسرَهُ أمِنَ من القتل واستبشر بالعفوِ، أما أرناطُ فلا عهدَ لهُ ولا أمانَ عند السلطان صلاحِ الدينِ للجرائمِ البشعةِ التي ارتكبها، ولتعرّضِهِ لسبِّ رسولِ اللهِ ﷺ وأذيتِهِ للمسلمين، ولا يحيقُ المكرُ السيّئ إلاّ بأهلِهِ.

ولقد نالَ جزاءهُ العادلَ ، والجزاءُ من جنسِ العملِ، وكما تَدينُ تُدانُ.

تمت الرسالة والحمد لله رب العالمين

وإلى اللقاء مع معركة إسلامية أخرى.

الفهرس

معارك عربية خالدة
١٨

معركة بيت المقدس

إعـــداد
عبد القادر الشيخ ابراهيم

دار القلم العربي



منشورات

دار القلم العربي

الطبعة الأولى

1421 هـ - 2001 م

عنوان الدار :

سورية ـ حلب ـ خلف الفندق السياحي

ص.ب :78 هاتف : 2213129 فاكس : 2212361 21 963+

البريد الالكتروني : E-mail : qalam_arabi@naseej.com

بسم الله الرحمن الرحيم

معركة بيت المقدسِ

تمهيد

سُمّيَ بيتُ المقدسِ بذلك لأنه المكانُ الذي يُتَقَدَّسُ فيه من الذنوبِ، أي يتطهرُ .

وبـــناءُ قدسَ كيفما تصرَّفَ فإن معناه التطهيرُ، ومنه قولُهُ تعالى : (الملكُ القُدُّوسُ [1]) يعني الطاهر .

ومـــنه : ﴿ادخلوا الأرضَ المقدسة[2] ﴾ أي المطهرةَ، ومثلُهُ قولُهُ تعالى : ﴿ بالوادِ المقدَّسِ طُوى[3]﴾.

وقولُهُ تعالى : (ونقدِّسُ لك [4]) أي نعظمُكَ ونمجِّدكَ ونطهرُ ذكركَ عمّا لا يليقُ بك.

---

[1] الآية ٢٣ من سورة الحشر.
[2] الآية ٢١ من سورة المائدة.
[3] الآية ١٦ من سورة النازعات.
[4] الآية ٣٠ من سورة البقرة.

قـــال الضحاكُ وغيرُهُ : المعنى نطهرُ أنفسَنا لكَ ابتغاءَ مرضاتِكَ .

ومـــنه قيل للسطلِ قدسٌ، لأنهُ يُتوضَأُ به ويُتَطَهَّرُ، وفي الحديث : (لا قُدِّسَتْ أمةٌ لا يُؤخَذُ من ضعيفِها لقويِها)[1] أي لا طهَّرَها اللهُ، فالقدسُ : الطهرُ من غيرِ خلافٍ .

وقيل للراهبِ : مقدِّسٌ ، ومنه قولُ امرئِ القيسِ :

فأدركْـنَهُ يـأخُذنَ بالساقِ والنَّسا كما شبَرقَ الوِلدانُ ثوبَ المقدِّسِ

أي أنَّ صـبيانَ النصارى يتبركون به، ويأخذون خيوطَ ثوبهِ حتى يتمزَّقَ .

والمـــرادُ ببيتِ المقدسِ، البيت الطاهرُ المباركُ، قال الله تعالى: ﴿سبحانَ الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجدِ الحرامِ إلى المسجدِ الأقصى الذي باركنا حولَهُ ﴾[2] .

وقال الشاعر :

قـــل للفـــرزدقِ والسفاهةُ كاسمِها إنْ كنتَ تاركَ ما أمرتُكَ فاجلس

ودعِ المديـــنةَ إنهـــا محـــذورةٌ والحـــقْ بمكةَ أو ببيتِ المقدسِ[3]

---

[1] الحديث رواه ابن ماجه.

[2] الآية ١ من سورة الإسراء.

[3] محذورة : أي مخوفة، وحذر الشيءَ إذا خافه، وهو محذور، أي مخوَّف.

فضائل بيتِ المقدِس

فضائلُ بيتِ المقدسِ كثيرةٌ جداً، ولو لم يكنْ له سوى فضيلةِ ذكرِهِ في القرآنِ الكريمِ ووصفِهِ بالبركةِ لكفتْهُ، قال اللهُ تعالى : (إلى المسجدِ الأقصى الذي باركنا حوله ... الآية)[1]

وقــال تعالى : (ونجيناه ولوطاً إلى الأرضِ التي باركْنا فيها للعالَمين [2]) هي بيتُ المقدسِ .

وقولُهُ تعالى لبني إسرائيلَ : (وواعدْناكم جانبَ الطورِ الأيمــنَ [3]) يعني بيتَ المقدسِ ، وقولُهُ تعالى حكايةً عن عيسى بنِ مريمَ وأمِهِ : ﴿وجعلنا ابنَ مريمَ وأمَّهُ آيةً وآويناهما إلى ربوةٍ ذاتِ قرارٍ ومَعين﴾[4]أي بيت المقدس.

وقولُهُ تعالى : ﴿ في بيوتٍ أذنَ اللهُ أن تُرفَعَ ويُذكَرَ فيها اسمُهُ ﴾ [5] المراد بيتُ المقدس، روي جميعُ ذلك عن مقاتلٍ .

وقــال رســولُ اللهِ ﷺ : (لاتُشَدُّ الرحالُ إلاّ إلى ثلاثة مساجدَ مسجدي هذا، والمسجدِ الحرامِ، والمسجدِ الأقصى)[6].

---

[1] تقدم تخريجها.
[2] الآية ٧١ من سورة الأنبياء.
[3] الآية ٨٠ من سورة طه.
[4] الآية ٥٠ من سورة المؤمنون.
[5] الآية ٣٦ من سورة النور.
[6] رواه مسلم.

وروي أن الصلاةَ في بيتِ المقدسِ خيرٌ من ألف صلاة في غــيرِه ، وأقربُ بقعة في الأرض من السماءِ البيتُ المقدسُ، ويمنَعُ الدجّالُ من دخولِها، ويهلكُ يأجوجُ ومأجوجُ دونها.

وفي الخـــبرِ : مَنْ صلّى في بيتِ المقدسِ فكأنما صلّى في السماء، ورفع اللهُ عيسى ابنَ مريمَ إلى السماءِ من بيتِ المقدسِ، وفيه مهبطُهُ إذا هبط،[1] وتُزَفُ الكعبةُ بجميعِ حجاجِها إلى بيتِ المقدسِ ، يُقالُ لها : مرحباً بالزائرِ والمزور .

ومـــن فضائله أن آدمَ عليه السلامُ أوصى أن يدفَنَ فيه، وكذلك إسحاقُ وإبراهيمُ، وحُملَ يعقوبُ من أرضِ مصْر حتى دُفــنَ فــيه، وأوصى يوسفُ عليه السلام حين مات بأرضِ مصْر أن يحمــلَ إليه، وهاجر إبراهيمُ عليه السلامُ من كوثى إلى أرضِ بيتِ المقدسِ، وإليها المحشرُ، ومنها المنشرُ ، وتاب اللهُ على داودَ بها، وصَدَّقَ إبراهيم الرؤيا بها، وكَلَّم عيسى الناسَ في المهدِ بها، وتقـــادُ الجنةُ يوم القيامةِ إليها، ومنها يتفرقُ الناسُ إلى الجنةِ أو إلى النارِ.

وتُزفُّ جميعُ مساجدِ الأرضِ إلى البيتِ المقدسِ .

---

[1] وهذا مناقض للخبر الآخر القائل بأن مهبطه في مسجد دمشق. والله أعلم.

ورويَ أنَّ أولَ شـــيءٍ حُسِرَ عنهُ الطوفان صخرةُ بيتِ المقدسِ، وفيه ينفَخُ في الصورِ يومَ القيامةِ، وعلى صخرتِه ينادي المنادي يومَ القيامة .

وقـــال اللهُ تعالى لسليمانَ بنِ داودَ عليهما السلامُ حين فرغ من بناء بيت المقدسِ : سلني أُعطِك ... ؟

قال : ياربِّ ، أسأَلُكَ أنَ تغفرَ لي ذنبي .

قال : لكَ ذلك .

قال : ياربُ، وأسأُلكَ أن تغفرَ لمن جاء هذا البيتَ يريدُ الصلاةَ فيه، وأن تخرجَهُ من ذنوبه كيومَ ولَدَتْهُ أمهُ .

قال : لك ذلك .

قال : وأسأُلكَ مَنْ جاء فقيراً أنْ تغنيَهُ .

قال : لكَ ذلك .

قال : وأسأُلكَ مَنْ جاء سقيماً أن تشفيَهُ .

قـــال : ولَـــكَ ذلك ... ذكر جميعَ ذلك ياقوتُ الحمويُّ في معجمِ البلدانِ .

وعـَــن عـــبد الله بنِ عمرَ رضي الله عنهما قال : قال رسولِ الله ﷺ : لما فرَغ سَليمانُ من بناء بيتِ المقدسِ سألَ اللهَ حكماً يوافقُ حكمَهُ، وملكاً لا ينبغي لأحدٍ من بعدِهِ، فأعطاه اللهُ ذلك.

وعـــن ابنِ عباسٍ رضي الله عنهما قال : البيتُ المُقَدَّسُ بَنَتْهُ الأنبياءُ، وسَكَنَتْهُ الأنبياءُ، ما فيه موضعُ شبرٍ إلاّ وقد صلّى فيه نبيٌّ، أو قام فيه مَلَكٌ.

ومـــن فضـــائلِ بيتِ المقدسِ أنهُ من أولِ البيوتِ التي أقيمَتْ في الأرضِ على الإطلاَق، وقد ذكر المفسرون ذلك في تفســير قولــه تعالى : (إنَّ أولَ بيتٍ وُضِعَ للناسِ لَلّذي ببكةَ مباركاً وهدىً للعالمين) [1].

جاء في الصحــيح عن أبي ذر ﷺ قال : قلتُ لرسولِ الله ﷺ : أيُّ مسجدٍ وُضِعَ على وجهِ الأرضِ أولاً ... ؟

قال : المسجدُ الحرامُ .

قلت : ثم أيُّ ... ؟

قال : البيتُ المُقَدَّسُ، وبينهما أربعون سنةً.[2]

وفي روايةٍ : قلتُ : ثم أيُّ ... ؟

قال : المسجدُ الأقصى.

قلتُ : كم بينهما ... ؟

قـــال : أربعون عاماً، ثم الأرضُ لك مسجدٌ فحيثما أدركَتْكَ الصلاةُ فصلِّ.[3]

---

[1] الآية ٩٦ من سورة آل عمران.

[2] رواه مسلم في صحيحه.

[3] رواه مسلم في صحيحه.

وهنا يعترضُنا إشكالٌ وهو كيف يكونُ بين بناء الكعبة وبيـــت المقدسِ أربعون عاماً، وأن الكعبةَ بناها إبراهيمُ ﷺ ، وأنَّ بيتَ المقدسِ بناهُ سليمانُ ﷺ ، وبينهما آمادٌ كثيرةٌ، قال أهلُ التاريخ : بينهما أكثرُ من ألفِ سنة.

قال القرطبيُّ : إنَّ إبراهيمَ وسليمانَ عليهما السلامُ إنما جدّدا ما كان أسَّسَهُ غيرُهُما، وقد رويَ أنّ أولَ مَنْ بنى البيتَ الحرامَ آدمُ ﷺ ، فيجوزُ أن يكونَ غيرُهُ من ولدِهِ وضع بيتَ المقدسِ من بعدِهِ بأربعين عاماً.

ويجـــوزُ أن تكونَ الملائكةُ أيضاً بَنَتْهُ بعد بنائها البيتَ بإذنِ اللهِ، وكلٌ محتملٌ. والله أعلمُ.

وقـــال عليُّ بنُ أبي طالب ﷺ : أمرَ اللهُ تعالى الملائكةَ ببـــناء بيـــت في الأرضِ، وأن يطوفوا به، وكان هذا قبل خلق آدمَ، ثم إنَّ آدمَ بنى منه ما بنى وطاف به، ثم الأنبياءُ بعدَهُ، ثم أتمَّ إبراهيمُ ﷺ بناءه)[1]

وكذلك يقالُ في بناءِ البيتِ المقدسِ ... والله أعلمُ.

ورويَ عـــن أُبَيٍّ بنِ كعبٍ قال : أوصى اللهُ تعالى إلى داودَ : ابنِ لي بيتاً، قال : يارِبُ وأين من الأرضِ ... ؟

---

[1] تفسير القرطبي.

قال : حيث ترى المَلَكَ شاهراً سيفَهُ .

فرأى داودُ مَلَكاً على الصخرةِ واقفاً وبيدِه سيفٌ.[1]

وقال كعبٌ : مَنْ زار البيتَ المقدَّسَ شوقاً إليه دخل الجنةَ، ومَنْ صلّى فيه ركعتين خرج من ذنوبه كيومِ وَلَدَتْهُ أمُّهُ، وأعطِيَ قلباً شاكراً، ولساناً ذاكراً، ومَنْ تصدَّقَ فيه بدرهمٍ كان فداءَهُ من النار.

ومَنْ صام فيه يوماً واحداً كُتبتْ له براءتُهُ من النارِ[2].

وقال أبو مالكٍ القرظيُّ في كتابِ اليهودِ الذي لم يغيَّرْ: إنَّ الله تعالى خلقَ الأرضَ فنظر إليها وقال : أنا واطئٌ على بقعتكِ .

فشمخَتِ الجبالُ، وتواضَعَتِ الصخرةُ، فشكر الله لها وقال: هذا مقامي وموضعُ ميزاني، وجنتي وناري، ومحشرُ خلقي، وأنا ديّانُ يوم الدينِ [3] .

يقولُ ياقوتُ الحمويُّ في وصفِ بيتِ المقدسِ وقد جلس فيه وشاهده عياناً : (وفي المسجدِ أماكنُ كثيرةٌ، وأوصافٌ عجيبةٌ لا تتصورُ إلاّ بالمشاهدةِ عياناً، ومِنْ أعظمِ

(1-2-3) معجم البلدان.

محاسنه أنه إذا جلس إنسانٌ فيه في أي موضعٍ منه يرى أن ذلك الموضعَ هو أحسنُ المواضعِ وأشرحُها، ولذا ... قيل : إنّ الله تعالى نظر إليه بعينِ الجمالِ، ونظر إلى المسجدِ الحرامِ بعين الجلال.

وتابع قائلاً :

أهيمُ بقاعِ القدسِ ما هبّتِ الصّبا   فتلك رباعُ الأنسِ في زمنِ الصّبا

ومازلتُ في شوقي إليها مواصلاً   سلامي على تلك المعاهدِ والرُّبا

ولست أدري أنّ هذين البيتين من شعرِهِ أم ذكرهما عن غيرِه ...؟

وقال : والحمدُ للهِ الذي وفقني لزيارتِهِ)[1]

(تحويلُ القِبلةِ)

ومن فضائلِ بيتِ المقدسِ أنه أولى القبلتين وثالثُ الحرمين الشريفين، وإليه تهوي أفئدةُ المؤمنين من مسلمين ومسيحيين، وله في قلوبهم مكانةٌ رفيعةٌ، ومنزلةٌ كريمةٌ، ولقد كان المسلمون يصلون إليه، ويتخذونه قبلةً لهم في الصلاة.

[1] معجم البلدان.

ذلك أن النبيَّ ﷺ لما قدمَ المدينة أراد أن يستألفَ قلوبَ الـــيهود، فتوجَّهَ في صلاته إلى قبلتِهم وهي بيتُ المقدسِ طمعاً في إيمانِهم، فلمّا تبيّنَ عنادَهم وأيسَ من إيمانهم أحبَّ أن يتحولَ إلى الكَعــبة لتكونَ قبلتَهُ في الصلاةِ لأنهُ يُحبُّها ولأنها قبلةُ أبيه إبراهيمَ عليه السلام ، فكانَ ينظرُ إلى السماء بعينه، ويتمنّى أن يحوَّلَ إلى الكعبةِ بقلبه، فأنزل اللهُ عز وجل قولَهُ : (قد نرى تقلُّبَ وجهكَ في الســماءِ فلنولّينَّكَ قبلةً ترضاها فولِّ وجهَكَ شطرَ المسجدِ الحرامِ وحيثما كنتم فولُّوا وجوهَكم شطرَهُ)[1]

ففرح النبيُّ ﷺ بذلك واتخذ الكعبةَ قبلةً له في الصلاة.

وعن عبدِ الله بنِ عمرَ رضي الله عنهما قال : بينما الناسُ بقباءَ في صلاةِ الصبحِ إذ جاءهم آت فقال : إنَّ رسول الله ﷺ قــد أنــزلَ علــيه اللــيلةَ قرآنٌ، وقد أُمِرَ أن يستقبل الكعبةَ فاســتقبلوها، وكانــت وجوهُهــم إلى الشام فاستداروا إلى الكعبة.)[2]

وعــن البراء: أن النبيَّ ﷺ صلّى إلى بيت المقدسِ ستةَ عشر شهراً، أو سبعةَ عشر شهراً، وكان يعجبُهُ أَن تكونَ قبلتُهُ

[1] الآية ١٤٤ من سورة البقرة.
[2] رواه الجماعة واللفظ لمالك.

قِبَلَ [1]البيت، وأنه صلى أولَ صلاة صلاها العصر وصلّى معه قَـــومٌ، فخرَج رجلٌ ممن كان صلّىً مع النبي ﷺ فمرّ على أهلِ المســـجد وهم راكعون فقال : أشهدُ بالله، لقد صــلّيتُ مع النبي ﷺ قِبَلَ مكةَ، فداروا كما هم قِبَلَ البيت، وكان قد مات عــلى القِـــبلة قبل أن تُحوَّلَ قِبَلَ البيت رجالٌ قُتلوا لم ندْرِ ما نقولُ فيهم، فأنزل اللهُ ﷻ : (وَما كان اللهُ لِيُضيعَ إيمانكم)[2].

وقـــيل : نزل ذلك على النبي ﷺ في مسجد بني سلمةَ وهو في صلاة الظهرِ بعد ركعتين منها فتحوّلَ في الصلاةِ، فسُمّيَ ذلك المسجدُ مسجدَ القبلتين.[3]

وقيل : إن الذي كان مع النبي ﷺ في هذه الصلاة، وأخبر الناسَ بتحويلِ القبلة هو عَبّادُ بنُ نَهيك.

وقيل : هو عَبّادُ بنُ بشرِ بنِ قيظي.

هذا ... ولستُ بصدَد ذكرِ تفصيلِ تحويلِ القبلة لطولِ الحديـــث عنها، فنكتفي بما ذكرناَ لبيانِ فضيلةِ بيتِ المَقدسِ، وأخذِ فكرَةِ عامةِ عنها.

عـــنِ الفُضَيلِ بنِ عياضٍ قال : لـــمّا صُرِفَت القبلةُ نحو الكعبة قالت الصخرةُ : إلهي، لمْ أزَلْ قبلةً لعبادكَ حتىَ إذا بعثتَ خيرَ خَلقِكَ صُرِفَتْ قبلتُهم عني ..!!

---

[1] قِبَلَ البيت : جهتُهُ

[2] رَواه البخاري، والآية ١٤٣ من سورة البقرة .

[3] تفسير القرطبي.

قــال : أبشري فإني واضعٌ عليك عرشي، وحاشرٌ إليكِ خلقي، وقاضٍ عليكِ أمري، وناشرٌ منكِ عبادي .[1]

أهمية

بيتِ المقدسِ

لأهمية بيتِ المقدسِ، ولعظيمِ مكانتهِ في نفوسِ المسلمين، فلقدِ اهتموا به وتطلعوا إلى فتحه، وتشوقَتْ قلوبهم إلى تحريرهِ مــنذ بــدءِ الفــتحِ الإسلامي، ذلك أنَّ أميرَ المؤمنين عمرَ بنَ الخطــابِ ﷺ أنفــذَ عمروَ بنَ العاصِ إلى فلسطينَ، وأمرَهُ أنْ ينــزلَ بيتَ المقدسِ ويعملَ على فتحه، فامتنع عليه، فقدمَ إليه أبــو عبــيدةَ بنُ الجراحِ سنة ١٦ للهجرة بعد أن افتتح الشامَ وقنّسرينَ، فطلب أهلُهُ من أبي عُبَيدةَ الصلحَ والأمانَ على مثلِ ما صالحَ عليه أهلَ مُدُنِ الشامِ من أداءِ الجزيةِ والخراجِ والدخول فــيما دخل فيه نظراؤهم على أن يكونَ المتولي للعقدِ لهم، أميرُ المؤمنين عمرُ ﷺ .[2]

---

[1] معجم البلدان.

[2] الجابية : قرية من أعمال دمشق من ناحيةِ الجولان شمالي حوران قرب مرج الصُفّر، وهو موضع بين دمشق والجولان.

فكتبَ أبو عُبيدةَ بذلك إلى عمرَ الذي قَدِمَ ونزل الجابية، ومنها إلى بيتِ المقدسِ فأنفذ صلحَهم وكتب لهم كتابَ أمانٍ، وضربَ عليهمُ الجزيَةَ، واشترط عليهم شروطاً قبلوها.

ولم يزلْ بيتُ المقدسِ بيدِ المسلمين يقيمون فيه العدلَ، ويحكمون بين الناسِ بالسويةِ لايظلمون أحداً، ولايُكرِهونه على تركِ دينِه، فشعر الناسُ على اختلاف دياناتِهِم ومعتقداتِهِم بالأمنِ والأمانِ، والراحةِ والسلمِ والسلامِ.

هذا ... وكان نصارى الرومِ والأرمنُ وسائرُ الإفرنجِ يقصدونه للتقديسِ والزيارةِ حسبَ طقوسِهِمُ الدينية، والصلاةِ في كنيستِهِمُ المسماة (بالقيامةِ) وليس لهم في الأرضِ أجلُّ وأعظمُ منها.

ثم مَلَكَ بيتَ المقدسِ سُكمانُ بنُ أُرْتُق وأخوه إيلغاري، والخطبةُ تقامُ فيه لبني العباسِ، فاستضعفَهُمُ الفاطميون فأرسلوا إليهم جيشاً لاطاقة لهم به، فتركهُ سَلمانُ وأخوه وانصرفا عنه بغيرِ قتالٍ، وذلك في سنةِ إحدى وتسعين وأربعمائةٍ .

فاستغل الإفرنجُ الصليبيون ضعفَ العربِ المسلمين وتفرُّقهم، فقصدوهم من جهةِ البحرِ، فنزلوا الساحلَ وملكوا

أكثَرهُ، وانتشروا في الأرضِ يزرعون فيها الخوفَ والذعرَ والقتلَ والسلبَ والدمارَ حتى دخلوا بيتَ المقدسِ تحت اسمِ الصليبِ، وكانوا قد حاصروه نيفاً وأربعين يوماً، ثم احتلوه عنوةً في اليوم الثالـــثِ والعشرين من شعبانَ سنةَ اثنتين وتسعين وأربعمائة، ووضـــعوا سيوفهم في رقاب المسلمين أسبوعاً كاملاً، فالتجأ الـــناسُ إلى المسجدِ الأقصى فتبعوهم وقتلوا منهم ما يزيدُ عن ســبعين ألفـــاً، وانتهبوا ما فيه من فرشٍ وقناديلَ وغيرِ ذلك، وجعلوا الصخرةَ والمسجدَ الأقصى مأوىً لخنازيرهم، ولم يزلْ في أيديهـــم حـــتى استخلصَهُ منهمُ الملكُ الناصرُ صلاحُ الدين الأيـــوبيُّ، يوسفُ بنُ أيوبَ رحمه الله تعالى سنةَ ثلاثٍ وثمانين وخمســـمائة، بعـــد أن رزَحَ تحـــت الاحتلالِ الصليبي إحدى وتسعين سنةً كما سيأتي تفصيلُهُ في موضعِه إنْ شاء اللهُ تعالى.

بين يدي معركةِ فتحِ بيتِ المقدسِ

قـــبل حـــدوث معركة حطينَ التي تقدم الحديثُ عنها مفصلاً في رسالةٍ مستقلة، كان السلطانُ صلاحُ الدينِ قد قصد مديـــنةَ آمد فحاصَرَها حصاراً محكماً طالَتْ مدّتُهُ، ثم تسلّمها

صـــلحاً من يدِ صاحبِها ابنِ بيسانَ، فلما دخلها وجد فيها من الأموالِ والذخائرِ والأسلحةِ والكتبِ ما أدهَشَهُ وأثارَ إعجابَهُ، فقد وجد فيها برجاً مملوءاً بنصولِ السهامِ، وبرجاً آخر فيه مائةُ ألفِ شمعة ، ووجد فيها مكتبةً عظيمةً جداً تحتوي على مليون وأربعينَ ألفَ مجلدٍ وَهَبَها كلَّها للقاضي الفاضلِ.

ثم انـــتقلَ منها إلى حلبَ فحاصرها، وقاتلهُ أهلُها قتالاً شديداً، ودافعوا عنها دفاعاً مستميتاً، قتل من جنودهِ عددٌ منهم أخـــوه تاجُ الملوكِ بوري بن أيوبَ الذي جُرِحَ في هذه المعركة جرحاً بليغاً مات على أثرِهِ بعد أيامٍ، وكان أصغرَ إخوتِه، ثم تمَّ الصـــلحُ بينَهُ وبين حكامِها، فدخل مدينة حلبَ وصعدَ قلعتَها المشهورة وهو يردّد قولَه تعالى : ﴿ قلِ اللهمَّ مالكَ الملكِ تؤتي الملكَ منْ تشاءُ وتنـــزعُ الملكَ ممنْ تشاءُ وتُعزُّ مَنْ تشاءُ وتُذلُّ مَنْ تشاءُ بيدِكَ الخيرُ إنكَ على كلِّ شيءٍ قدير﴾[1]. ولّما دخل حجـــرةَ الملـــكِ تلا قوله تعالى:﴿ وأورثكم أرضَهم وديارَهم وأموالَهم وأرضاً لم تطؤوها وكان الله على كل شيء قديراً﴾[2]

[1] الآية ٢٦ من سورة آل عمران.
[2] الآية ٢٧ من سورة الأحزاب.

ولمـــا دخـــل بابَ إبراهيمَ عليه السلام صلّى فيه ركعتين وأطال السجودَ فيهما، ثم دعا الله تعالى وتضرَّعَ إليه بصدقٍ وإخلاصٍ أنْ يُلْهِمَهُ الصبرَ، ويَهَبَهُ النصرَ، وأخذ الناسُ يقصدونه من كلِّ مكـــانٍ ويمدحونـــه بخطبِهم وأشعارِهم، فخلع عليهمُ الهدايا، وأغـــدقَ لهـــم العطاءَ، وأحسَنَ إلى الناسِ جميعاً، وخصَّ منهمُ المساكينَ والفقراءَ.

ولقـــد وقعـــتِ القلعة منه بموقعٍ عظيمٍ، وسُرَّ بفتحِها ســـروراً شديداً، وقال وهو يعبرُ عن فرحتِه بفتحِها: ماسُرِرْتُ بفـــتحِ قلعةٍ أعظمَ سروراً من فتحِ مدينةِ حلبَ، ذلك أنهُ بُشِّرَ بفتحِ بيتِ المقدسِ حينَ فتح مدينةَ حلبَ.

ذلك أن الفقيهَ العالمَ مجدَ الدينِ بنَ جهبل الشافعيَّ رأى في بعـــضِ التفاسيرِ عند تفسيرِ قولِه تعالى: ﴿الم، غُلِبَتِ الرومُ في أدنى الأرضِ وهـــو مـــن بعدِ غَلَبِهِم ســـيغلبـــون في بضعِ ســـنين﴾[1] رأى البشـــارةَ بفتحِ بيتِ المقدسِ في سنةِ ثلاثٍ وثمانين وخمسمائة، واستدلَّ على ذلك بأشياءَ، فكتب ذلك في ورقةٍ وأعطاها للفقيهِ عيسى الهكاري ليبشرَ بها السلطانَ صلاحَ

[1] الآيات ١-٤ من سورة الروم.

الديـــنِ، فلم يجرُؤْ على ذلك خوفاً من الخطأ أو عدمِ المطابقةِ، فأخبر به القاضيَ محيي الدينِ بنَ الزكي الذي نظم معنى الرؤيا في قصيدةٍ يقولُ فيها :

وفــتحُكُم حلــبَ الشــهباءَ في صفرٍ   قضـــى لكم بافتتاحِ القدسِ في رجبِ

ويُروى :

وفــتحُهُ حلــباً بالســيفِ في صفرٍ   مبشـــرٌ بفــتوحِ القدسِ في رجبِ

ثم أعطى القصيدةَ للسلطانِ صلاحِ الدينِ الذي فرح بها فرحاً شديداً، واستبشر بها خيراً، وصارَتْ له حافزاً لفتحِ بيتِ المقدسِ، وتاقتْ نفسُهُ إلى ذلك. وأصبحَ فتحُ بيتِ المقدسِ من أهمِّ الأمور التي أشغَلَتْهُ وأخذَتْ قسطاً كبيراً من وقتِهِ وتفكيرِهِ، وأضحَتْ هاجسَهُ بالليل والنهارِ.

الاستعدادُ للفتحِ

ثم رحلَ صلاحُ الدينِ من حلبَ بعد أن أشغَلَهُ نبأُ رؤيا فتحِ بيتِ المقدسِ، واستخلف عليها ولَدَهُ الظاهر غازي، وولّى قضاءَها لابنِ الزكي الذي نظمَ القصيدة المذكورةَ، ولكنَّ ابنَ الـــزكي لم يرضَ بالقضاءِ بديلاً عن الجهادِ، فاستناب عنه نائباً

فيها ومضى مع السلطانِ للجهادِ في سبيلِ الله، فدخلوا دمشقَ، ثم خرجوا منها قاصدينَ بيتَ المقدسِ لقتالِ الصليبيين، فانتهوا إلى بيســـانَ[1] فقـــاتلوا مَنْ فيها منَ الصليبيين، فقتلوا وأسروا وغـــنموا، ثم خرجوا منها منتصرينَ مُظَفَّرين يقودون الأسرى، ويحملـــون الغنائم، حتى انتهَوا إلى عينِ [2]جالوتَ لجسٍّ نبضِ العـــدو مـــن جهةٍ، ولاستعراضِ العضلاتِ من جهةٍ أخرى، فـــنـــزلوا عليها، وبدأ صلاح الدينِ يبثُّ جنودَهُ هنا وهناكَ، ويرسلُ طلائِعَهُ لتغيرَ على معسكراتِ العدوِ فتقتلُ وتأسُرُ وتنذرُ بحـــربٍ شـــديدةٍ وطاحنةٍ تسحقُهم سحقاً وتطردُهم من بيتِ المقدسِ ومن جميعِ بلدان المسلمين.

وكان فيما أرسل سريةٌ هائلةٌ عليها فارسٌ كبيرٌ يقالُ له (بـــردويل) فالـــتقَوا معهم، ودارَتْ بين الفريقين معركةٌ قويةٌ أســـفَرَتْ عـــن مقتلِ عددٍ كبيرٍ من الفرنجِ وأسرِ مائَةِ أسيرٍ في

---

[1] بيسان : مدينة بالغور الشامي بين حوران وفلسطين، ويُقال : هي لسان الأرض، وجاء ذكرها في حديث الجساسة الذي رواه مسلم في صحيحه.

[2] عـــين جـــالوت : بليدة لطيفة بين بيسان ونابلس من أعمال فلسطين، كان الروم قد اســـتولوا عليها مدة ثم استنقذها منهم صلاح الدين الأيوبي سنة ٥٧٩. انظر معجم البلدان.

الوقت الذي لم يفقدْ فيه المسلمون سوى شخصٍ واحدٍ، ورجعوا إلى معسكرِهم آخرَ النهارِ يقودون الأسرى.

ثم بلغَ صلاحَ الدينِ أن الفرنجَ قدِ اجتمعوا لقتالِه، وأعدُّوا له جيشاً كبيراً، فاستعدَّ للقائِهم، ومكث ينتظرُ قدومَهم على أحرّ من الجمرِ، ثم التقى معهم فقتلَ منهم عدداً كبيراً، وجرحَ مثلهم وأسَرَ آخرين، فرجعوا على أعقابهم ناكصين، وهربوا أمامه خائفين، ولازال يتبعُهم بجيشِه يقتلُ منهم ويأسرُ حتى دخلوا بلادَهم، فرجع عنهم.

وكتب القاضي الفاضلُ إلى الخليفة يخبرُهُ بالظفرِ بالعدوِ، وبما مَنَّ اللهُ على المسلمين من تأييدٍ ونصرٍ، وكان لا يفعلُ شيئا، ولايُقدمُ عليه إلاّ إذا أطلع عليه الخليفة أدباً معه، واحتراماً له واحتشاماً.

هدمُ حصن الأحزانِ [1]

ويقالُ له : بيتُ الأحزانِ، وهو جمعُ حزن، سُمِّيَ بذلك لأنهم كانوا يزعمون أنَّه كان مسكَنَ يعقوبَ ﷺ، أيامَ فراقِه

---

[1] حصن الأحزان : جمع حزن ضد الفرح : بلد بين دمشق والساحل.

ليوسفَ ﷺ ، وكان الفرنجُ بنَوهُ، وأشادوا عليه حصناً حصيناً، وحفروا فيه بئراً، وجعلوه لهم مرصداً يرصدون منه تحركات المسلمين، فلما علم به السلطانُ صلاحُ الدينِ رحمه الله تعالى توجَّه إليه فحاصَرَهُ وصَدَّعَهُ من جميعِ جهاته، ثم أحرقَهُ وألقى فيه النيرانَ فاشتعَلَتْ بجميعِ جوانبِه، ثم أَمَر بهدمِهِ من أساسِه، وقتلِ مَنْ فيه، وغنمَ منه مائةَ ألفِ قطعةٍ من السلاحِ، ولم يَفقِدْ من أمرائِه سوى عشرةٍ بسببِ ما أصابهم من الحرِّ والوباءِ والمرضِ في مدةِ الحصارِ التي دامَتْ أربعة عشر يوماً، وزارَ مشهدَ يعقوبَ ﷺ ، ثم عاد إلى دمشقَ مكلَّلاً بالنصر والظفرِ.

ولقد خلَّدَ بعضُهم هذه الحادثةَ بقوله :

هلاكُ الفرنجِ أتى عاجلاً	وقد آنَ تكسيرُ صلبانِها
ولو لم يكنْ قد دنا حتفُها	لما عمرتْ بيتَ أحزانِها

وقال آخرُ يمدحُ صلاحَ الدينِ ويهزأُ بالفرنجِ وطيشهم وعصبيتهم :

بجدكَ أعطَافُ القنا قد تعطَّفَتْ	وطرْفُ الأعادي دون مجدكَ يطرفُ
شهابُ هدىً في ظلمةِ الليلِ ثاقبٌ	وسيفٌ إذا ما هزَّهُ اللهُ مُرْهَفُ
وقفتَ على حصنِ المخاضِ وإنه	لموقفُ حقٍ لايوازيه موقفُ
فلم يَبْدُ وجهُ الأرضِ بل حال دونه	رجالٌ كآسادِ الشَّرى وهي ترجلُ
وما رجَعَتْ أعلامُكَ البيضُ ساعةً	إلى أنْ غَدَتْ أكبادُها السودُ ترجفُ

كـــنائسُ أعـــياد صـــليبٌ وبـــيعةٌ وشـــاد بـــه ديـــنٌ حنيفٌ ومصحفُ[1]
صـــليبٌ وعُـــبادُ الصـــليبِ ومـــنـــزلٌ لـــنوالِ قـــد غادَرتـــهُ وهـــو صفصَفُ
أتســـكنُ أوطـــانَ النبـــيينَ عصـــبةٌ كمـــينٌ لـــدى أيمانهـــا وهـــي تحلفُ
نصـــحتكُم والنصـــحُ في الديـــن واجبٌ ذروا بيـــتَ يعقـــوبَ فقد جاء يوسفُ

يريد بيوسفَ صلاحَ الدينِ رحمه الله تعالى.

ما بعد وقعةِ حطينَ

بعـــد فـــراغِ صلاحِ الدينِ من معركةِ حطينَ، ونصرِهِ العظـــيم على الفرنجِ وقتلِ قادتِهِم وأمرائِهِم، وأسرِ ملوكِهِم، وكســـرِ شـــوكتِهِم، والقضاء على غطرستِهِم، توجَّهَ إلى قلعة طـــبرية[2] ففتحها، ويروى أنه هَدَمها، فأغضب بذلك الفرنجَ وأثار حَنَقَهم، فلم يحفِلْ بهم صلاحُ الدينِ بل إنه مسرورٌ جداً حين يغضبُهم.

---

[1] بيعة : البيعة دار عبادة لليهود، وهي بمعنى كنيسة.

[2] طبرية : معنى طَبَرَ في اللغة : قفز واختبأ، وهي بليدة مطلة على البحيرة المعروفة ببحيرة طبرية، وتقع في طرف جبلٍ، وجبل الطور مطل عليها، وهي من أعمال الأردن في طرف الغـــور، بيـــنها وبين دمشق ثلاثة أيام وكذلك بينها وبين بيت المقدس، وبينها وبين عكا مسيرة يومين.

افتـــتحها شـــرحبيل بن حسنة سنة ثلاث عشرة، ثم هجم عليها الروم فسيَّرَ إليهم أبو عُبيدة عمرو بن العاص في أربعة آلاف فطردهم منها وفتحها.

فتح بيت المقدس

ثم سار إلى حطينَ فزار قبرَ النبي شعيب عليه السلام ، لأنه يروى أنَّ قبرَهُ هناك ثم مضى إلى إقليمِ الأردنِ ففتحها كلَّها، وكانَتْ قرىً كثيرةً، كباراً وصغاراً.

ثم مضى إلى عكا فافتتحها صلحاً، وأخذ ما كان فيها من حواصلِ الملوكِ وأموالِهم وذخائرِهم وغيرِ ذلك، واستنقذ مَنْ كان فيها من أسرى المسلمين، وكانوا أربعة آلافَ أسيرٍ، وأمر بإقامةِ صلاةِ الجمعةِ فيها، وكانَتْ أولَ جمعةٍ أُقيمَتْ بالساحلِ بعد احتلالِ الفرنج.

ثم سارَ منها إلى صيدا[1] وبيروت[2] وجميع المدن الساحلية فأخذها مدينةً مدينةً ثم رجع إلى غزةَ[3] وعسقلانَ[4] ونابلسَ[5] وبيسانَ وأراضي الغورِ فافتتحها كلَّها، وجعلَ على نابلسَ ابنَ أختِه حسامَ الدينِ عمرَ بنَ محمدِ بنِ لاشينَ، فكان جملةُ المدنِ والقرى التي افتتحها خمسين مدينةً وقريةً، وغنم منها أشياءَ كثيرةً، من مالٍ وسلاحٍ وعتادٍ.

---

(1) صيدا : مدينة على ساحل بحر الشام، شرقي صور بينهما ستة فراسخ.

(2) بيروت :مدينة مشهورة على ساحل بحر الشام بينها وبين صيدا ثلاثة فراسخ.

(3) غزة : مدينة في أقصى الشام من ناحية مصر، بينها وبين عسقلان فرسخان.

(4) عسقلان : مدينة بالشام من أعمال فلسطين على ساحل البحر بين غزة وبيت جبرين ويقال لها : عروس الشام، وكذلك يقال لدمشق أيضاً.

(5) نابلس:مدينة مشهورة بأرض فلسطين،بينها وبين بيت المقدس عشرة فراسخ.

ثم أمَرَ جنودَهُ أن يستريحوا في هذه الأماكنِ، وأن ترتَعَ خيولُهُم استعداداً لفتح بيت المقدسِ بعد أن فتح الله عليه هذه البلادَ، ومكّنهُ منها.

وانتشر الخبرُ بين الناسِ أن السلطانَ صلاحَ الدينِ عازمٌ عــلى فتحِ بيتِ المقدسِ فقصدَهُ العلماءُ والصالحون وأصحابُ النخوةِ والشهامةِ والغيرةِ الدينيةِ والوطنيةِ متطوعين للجهاد في ســبيل اللهِ تعالى، وجاءَه أخوه العادلُ بعد وقعةِ حطينَ وفتح عكا الذي فتحَ بنفسهِ حصوناً كثيرةً.

فاجــتمع إليه من الجيوشِ والمتطوعين عددٌ كبيرٌ جداً، فأصــبح على استعدادٍ كاملٍ لخوضِ معركةِ المصيرِ والشرفِ، وامتدحَهُ الخطباءُ والشعراءُ، وأثنوا عليه خيراً.

وكتــب إليه القاضي الفاضلُ وهو مقيمٌ بدمشقَ لمرضٍ أصــابه : (ليهنِ المولى أنَّ اللهَ أقام به الدينَ، وكتب المملوكُ[1] هذه الخدمَةَ والرؤوسُ لم تُرفَعْ من سجودِها والدموعُ لم تُمسَحْ

---

[1] يريدُ بالمملوك نفسَهُ تأدباً مع السلطان صلاح الدين.

مـــن خدودِها، وكلما ذكر المملوكُ أنَّ البِيَعَ[1] تعودُ مساجد، والمكـــانَ الذي كان يقالُ فيه إنَّ اللهَ ثالثُ ثلاثةٍ يقالُ فيه اليومَ إنه الواحد، جدَّدَ للهِ شكراً تارةً يفيضُ من لسانِه، وتارةً يفيض من جفنِهِ سروراً بتوحيد اللهِ تعالى الملكِ الحقِ المبينِ، وأنْ يُقالَ محمدٌ رسولُ اللهِ الصادقُ الأمينُ، وجزى اللهُ يوسفَ خيراً عن إخــراجهِ من سجنِه، والمماليكُ ينتظرون المولى وكلُ مَنْ أرادَ أن يدخُلَ الحمامَ بدمشقَ قد عزم على دخولِ حمامِ طبرية.

تلــك المكــارمُ لاقعــبانُ مــن لبنٍ   وذلك السيفُ لاسيفُ ابنِ ذي يَزَنِ

ثم قـــال : وللألسنةِ بعد هذا الفتحِ تسبيحٌ طويلٌ، وقولٌ جميلٌ جليلٌ.[2]

المسيرُ إلي بيت المقدسِ

افتتحَ صلاحُ الدينِ رحمهُ اللهُ تعالى المدنَ والقرى المحيطةَ ببيــتِ المقدسِ، ودان لها أهلُها، واطمأنَّ إلى تطهيرِ ما حولها، واجتمع إليه عددٌ كبيرٌ من الجيش والمتطوعين الذين قدموا إليه باختيارِهم ومحضِ إرادتِهم للدفاع عن الأرضِ المقدسةِ وتحريرها

---

[1] البيعُ : جمع بيعة، وهي كنائس اليهود.
[2] البداية والنهاية

مــن براثنِ الفرنجِ الصليبيين الذين عاثوا فيها الفسادَ، وحولوا المســجدَ الأقصــى إلى اصطبلاتٍ ربطوا فيها خيولَهم، وإلى خمــاراتٍ ودورٍ للهوِ والعبث، شربوا فيها الخمورَ، ومارسوا أبشــعَ أنــواعِ القذارةِ والأمور اللاأخلاقيةِ. وقد عاهد هؤلاء المتطوعون صلاحَ الدينِ رحمَهُ اللهُ تعالى على الصبرِ والثباتِ في وجه العدوِ مهما كان الثمنُ غالياً حتى يحققوا النصرَ، ويطردوه من بيتِ المقدسِ، ويطهّروه من فسادِهم وشرورِهم.

لقد مضى صلاحُ الدينِ بهؤلاء المجاهدين المخلصين نحو بيــتِ المقــدسِ وليس أمامهُ سوى هدفٍ واحدٍ يسعى جاهداً لتحقــيقهِ مهمــا يكنْ بعدُ الشُقّةِ وفداحةُ المشقّةِ، وقد كرَّسَ جهــدَهُ وعقلَهُ وفكرَهُ، وجميعَ ما يملكُ من وقتٍ ومالٍ وجيشٍ وعــتادٍ لإحرازِ النصرِ، وتحقيق الهدفِ ابتغاءَ رضوانِ اللهِ تعالى ونيل رحمتهِ وجنتِهِ.

وفي الــيوم الخــامسَ عشرَ من شهر رجبَ سنةَ ثلاثٍ وثمانين وخمسمائة، نزل بجيشهِ غربيَّ بيتِ المقدسِ، فوجد البلدَ قد حُصِّنَتْ تحصيناً محكماً، وزُرِعَ أفرادُ الجيشِ والحراسُ حولها زرعاً شديداً، وكانوا يومئذٍ ستينَ ألفَ مقاتلٍ شكلوا طوقاً قوياً

حامـيـاً لا يسـتطيعُ جيشٌ مهما بلغ من القوةِ والاستعدادِ أن يخترقَهُ.

وكـان صـاحبُ القدسِ، رجلاً قوياً، شديدَ الدهاءِ والمـراسِ يقالُ له (بالبانُ) ومعه عددٌ كبيرٌ من الذين هربوا يومَ وقعـةِ حطين ونجوا بحياتِهِم من القَتلِ والأسرِ، ومعظمهم من الداويـةِ[1] والاستثارية فلجؤوا إلى القدسِ واحتموا فيها عند بالبانَ المذكورِ.

فـلما رأى صـلاحُ الدينِ رحمهُ اللهُ تعالى هذا الحشدَ الهائلَ والحراسةَ المُحكمةَ الشديدةَ أقام مكانهُ ينظرُ بأمرِ هؤلاءِ، ويرسمُ خطةً محكمةً لكسرِ ذلك الطوق واختراق ذلك الحشد الهائلِ من الجنودِ والحراسِ، ولم يُثنِ ذلك من عزيمته، ولم يُثبِّطْ ذلك من همّته، ولم يتردَّد لحظةً، ولم يتراجعْ خطوةً واحدةً عنِ الهـدفِ السامي والقصدِ النبيلِ الذي جاء من أجله وما هو إلاَّ إحـدى الحُسْـنيين : إمـا الشهادةُ أو النصرُ، ولا محيدَ عن إحداهما، وهما غايةُ كلِّ مسلمٍ وهدفُهُ ومُبتغاه.

---

[1] الداوية : هم الفرسان المعروفون باسم فرسان المعبد.

بدءُ القتالِ

أقامَ السلطانُ صلاحُ الدينِ رحمهُ اللهُ تعالى مكانَهُ خمسةَ أيــامٍ يرسِــمُ خطــةً للقتالِ، ويذكي في نفوسِ جنودِهِ الصبرَ والثباتَ والإيمانَ، وحُبَّ الجهادِ في سبيلِ اللهِ، ووزَّعهم إلى فِرقٍ وطوائــفَ، وجعل على كلِ طائفةٍ منهم أميراً شجاعاً ذكياً، وأوكلَ إلى كلِ فرقةٍ ناحيةً من السورِ لمراقبة أبراجِهِ، وما يصدُر عن جنودِ الفرنجِ من تحرّكات.

ثم تحــوّلَ صلاحُ الدين رحمهُ اللهُ تعالى إلى جهة الشّامِ لــيكونَ المجــالُ معــه أوسعَ، وميدانُ المعركة أفسحَ للتحركِ والنــزالِ، ولوصولِ الإمدادِ إليه إنِ احتاج الأمرُ، وهو يشجعُ جنودَهُ، ويُلهبُ حماسَهم، ويتلو عليهم آياتِ الجهادِ، ويذكرُهم بثوابِ القتالِ في سبيلِ اللهِ، وما أعدَّ للمجاهدين والشهداءِ من أجرٍ جزيلٍ وثوابٍ عظيمٍ.

ثم أصدرَ أوامرَهُ بالهجومِ على العدوِ واقتحامِ الأسوارِ، ودكِّ الحصــونِ والأبراجِ، فكانَ القتالُ حاميا، والمعركةُ ضاريةً أظهر فيها المسلمون شجاعةً فائقةً، وبسالةً عظيمةً، وثبتوا ثباتاً مشــرفاً، وصبروا صبراً جميلاً وقد صمموا على إحرازِ النصرِ مهما كانتِ النتائجُ.

هذا ... ولقد قاتل الصليبيون قتالاً شديداً، ووقفوا في وجه المسلمين دفاعاً عن أسوارِ مدينتهم دفاعاً مستميتاً، وبذلوا كلَّ ما يملكون لصدِّ هجماتِ المسلمين نصرةً لدينِهِم، وحمايةً لقيامـــتِهِم[1]، فاستُشهِدَ في هذا القتالِ عددٌ من قادةِ المسلمين وأمرائِهِم، الأمرُ الذي أغضَبَهم وأثار حَنَقَهم، وإذا هم يسمعون صوتَ صلاحِ الدينِ يأمرُهم بالتحلي بالصبرِ والإيمانِ والإكثارِ مـــن قولِ : لا إله إلاّ الله محمدٌ رسولُ الله، ومن قولِ : حسبيَ اللهُ ونعمَ الوكيلُ.

فاســتجابوا لــندائِهِ، واجتهدوا في القتالِ، وضاعفوا جهودَهـــم، ونصبوا المجانيقَ على أسوارِ البلدِ، فتسلقوا عليها، ورنَـــتْ أبصارُهم إلى بيتِ المقدسِ، والعيونُ تنظرُ إلى الصلبانِ الكـــبيرةِ المنصوبةِ في المحافلِ العامةِ وعلى الجدرانِ، وإذا صليبٌ كبيرٌ منصوبٌ فوق قبةِ الصخرةِ المعظمةِ، فازداد المسلمونَ حنقاً وتصميماً على متابعةِ القتالِ لإسقاطِ تلك الصلبانِ، وتطهيرِ قبةِ الصخرةِ منها، وإزالةِ جميعِ مظاهرِ الكفرِ والشركِ والوثنيةِ من جمـــيعِ شوارعِ القدسِ وساحاتِها ومنازِلها، فكان يوماً عسيراً

---

[1] القيامة : كنيسة ليس لهم في الأرض أجلُّ وأعظمُ منها.

على الكافرين غيرَ يسيرٍ، ثم توجَّهَ صلاحُ الدينِ ببعضِ الفرسان الميامين إلى الزاوية الشمالية الشرقيةِ من السورِ فجعلوا يضربونها حتى تصدَّعَتْ، ثم أشعلوا فيها النيرانَ فسقط ذلك الجانبُ كلُّهُ، وخــرَّ الــبرجُ برمَّــتِهِ، وأصبح ذلك الجانبُ خالياً من السورِ ومكشــوفاً تمامــاً للمسلمين الذين أخذوا ينظرون إليه بشوقٍ وشَغَفٍ لاقتحامِهِ لدخولِ المدينةِ.

استسلامُ الفرنجِ

لم يكــدِ الفرنجُ يشاهدون السورَ يتصدَّعُ، ثم يتهاوى ويتســاقطُ حــتى أُسقطَ في أيديهم، وصُدموا بصورةٍ عنيفةٍ، وأيقــنوا بالهزيمةِ والخسرانِ، ورأوا أنهم إن لم يستسلموا هلكوا جميعاً، وفقدوا هيبتَهم وكرامتَهم، فتوجَّهَ أمراؤهم إلى السلطان المنتصــر صلاحِ الدينِ، وأماراتُ الذلِّ والصغارِ والهزيمةِ باديةٌ عــلى وجوهِهِم، ثم وقفوا أمامَهُ أذلاءَ صاغرين وقد كُسِرَت شــوكتُهم، وأعلــنوا هزيمَتهم، وأخذوا يرجونه أن يصالحَهم ويُعطيَهُم الأمانَ.

فلم يستجبْ لهم وقال : لا أفتَحُها إلاّ عنوةً، كما افتتحتموها أنتم عنوةً، ولا أترك بها أحداً من النصارى إلاّ قتلتُهُ كما قتلتم أنتم مَنْ كان بها من المسلمين.

ذلك أنهم حيث دخلوها وضعوا سيوفَهم في رقابِ المسلمين أسبوعاً كاملاً، ولم يرفعوها حتى قتلوا منهم أكثرَ من سبعينَ ألفاً بكلِ قسوةٍ ووحشيةٍ، ولم يرعَوا في الله إلاًّ ولا ذمةً، فالجزاءُ من جنسِ العملِ، وكما تَدينُ تُدانُ.

﴿ذلك بما قدَّمَتْ أيديكم وأنَّ اللهَ ليسَ بظلاّمٍ للعبيد[1]﴾ .

فطلب باليانُ حاكمُ بيتِ المقدسِ الأمانَ ليجتمعَ بصلاحِ الدينِ، فأمَّنَهُ على نفسِهِ، فلما وقف أمامَهُ ومَثَلَ بين يديه، كما يمثلُ الأجيرُ بين يدي سيده، ووقف ذليلاً حقيراً مهاناً، وأخذ يرجوه ويتوسلُ إليه بكلِّ ما أمكَنَهُ من عباراتِ التوسلِ والرجاءِ، وصلاحُ الدينِ لابثٌ مكانه ينظرُ إليه في عزةٍ وإباءٍ وشموخٍ نظرَ المستصغرِ المستهينِ دون أن يحفلَ به أو يكترثَ لأمرِهِ، ذلك أنه هو المنتصرُ، وهو القويُّ، والمنتصرُ هو

---

[1] الآية ٥١ من سورة الأنفال.

الـــذي يفرضُ شروطَهُ، والقويُّ هو الذي يملي على خصمهِ ما يـــريدُ، وصـــلاحُ الدينِ الرجلُ المؤمنُ القويُّ يتمثلُ قولَ الحقِ تـــبارك وتعالى : (ولا تهنوا ولاتحزنوا وأنتم الأعلَون إن كنتم مؤمنين).[1]

(فلا تهنوا وتدعوا إلى السَّلمِ وأنتمُ الأعلَون واللهُ معكم ولن يَتِرَكم أعمالَكم)[2] ﷻ .

ولـــن يَـــترَكم أعمالكم : أي لن يُنْقِصَكُم من ثوابِ أعمالكم شيئاً، فأنتمُ الأعلَون قوةً وإيماناً واعتقاداً وارتباطاً باللهِ، وصلةً بالعلي الأعلى.

وأنـــتمُ الأعلَـــون خُلُقاً وسلوكاً ومكاناً ونصرةً، لأنَّ معكـــم القوةَ الكبرى وهو اللهُ ﷻ ونصرُه وتأييدُهُ، ومَنْ كان كذلك كان قوياً لا يضعُفُ، وشجاعاً لايجبُنُ، وعزيزاً لايذلُّ، وكذلـــك كـــان صلاحُ الدينِ في موقفهِ مع بالبانَ قوياً عزيزاً شامخاً مظفراً معتزاً باللهِ، مستصغراً لخصمهِ وعدوِهِ.

---

[1] الآية ١٣٩ من سورة آل عمران.

[2] الآية ٣٥ من سورة محمد ﷺ .

الصلح

وقفَ بالبانُ وأمراءُ الفرنجِ وقادتُهم يرجون صلاحَ الدّين أن يعفــوَ عــنهم ويعطيَهم الأمان وله أن يفرضَ شروطَهُ كما يــريدُ، فلم يكترثْ بهم، فقالوا وقد يئسوا من الأمانِ: إن لم تعطــنا الأمان رجعنا فقتلنا كلَّ أسيرٍ منكم بأيدينا — وكانوا قريباً من أربعة آلافِ أسيرٍ — وقتلنا ذراريَنا وأولادَنا ونساءَنا، وخرَّبْــنا الــدورَ والأماكنَ الحسنةَ وهدمناها، وأحرقنا المتاعَ، وأتلفنا ما بأيدينا من الأموالِ، وهدمنا قبةَ الصخرةِ، وحرقنا ما نقــدرُ عليه، ولا نتركُ شيئاً نقدرُ على إتلافهِ إلاّ أتلفْناه، وبعد ذلك نخرجُ إليكم فنقاتلكُم حتى الموتِ ولا خيرَ في حياتِنا بعد ذلك، فلا يُقتلُ واحدٌ منّا حتى يقتلَ أعداداً منكم، فماذا ترتجي بعد هذا من الخيرِ ...!! ...؟؟

فأجابهمْ صلاحُ الدينِ للصّلحِ وأعطاهُمُ الأمانَ ليس عن ضَعفٍ وهوانٍ، ولا عن تردّدٍ وخذلانٍ، بل عن قوة وتفوق واستعلاء، فهو القويُّ والمنتصرُ، والمؤمنُ الذي رجع إلى قول الحقِّ تبارك وتعالى الذي أمر نبيّهُ محمداً ﷺ أن يجنحَ إلى السلام

إذا جَنحَ إليه العدو ومالَ إليه وطَلَبَهُ، وكذلك الأمرُ إلى جميع وُلاةِ أمورِ المسلمينَ حين يرونَ رغبةَ العدوِّ في السّلمِ والصلحِ والمسالمةِ، ودلَّتْ ظواهرهُم وأفعالُهم في الرغبةِ الأكيدةِ في السلمِ حقاً، قال الله تبارك وتعالى : ﴿وإن جنحوا للسَّلْم فاجنحْ لها وتوكلْ على اللهِ إنه هو السميعُ العليمُ﴾[1].

من هذا المنطلقِ الإسلاميِّ، وبموجب النصِّ القرآنيِّ استجابَ صلاحُ الدينِ رحمهُ اللهُ تعالى لرغبتِهم في الصلحِ، ومالَ إلى السلامِ والمسالمةِ، فكان سلامُهُ معهم سلامَ الأبطالِ، وصلحُهُ صلحَ الشجعانَ الأقوياءِ المتفوقينَ الذين يفرضُونَ شروطَهم بكلِّ ثقةٍ وقوةٍ، ويسالمونَ عدوَّهم ويوادعونهُ وهو في حالة ضعف وتقهقرٍ وخذلان كالمريض الذي يلفظُ أنفاسَهُ الأخيرةَ، أو الغريقِ الذي يتشبثُ بشعرةٍ يرجو أن تنقذَهُ من الغرقِ وتمنحَهُ الحياةَ، تماماً كما حصل لِلُبنانَ وحملةِ الصليبِ، فلاحَرَجَ إذن على صلاحِ الدينِ، ولاغضاضَةَ عليه حينَ يستجيبُ لهم في الصلحِ، ويعطيهُم الأمان ... !! بل إن طبيعةَ الدينِ الذي يؤمنُ به ويخضعُ لتعاليمهِ هي التي تفرضُ عليه وتأمُرُهُ أن يميلَ إلى الصلحِ، لأنها قائمةٌ على أساسٍ من العفوِ والتسامحِ والإنسانيةِ، قال الله تعالى : ﴿ خذِ العفوَ وأمُرْ

---

[1] الآية ٦١ من سورة الأنفال.

بالعرفِ وأعرِضْ عن الجاهلين﴾ [1] ﴿وجزاءُ سيئةٍ سيئةٌ مثلُها فمن عفَا وأصلحَ فأجرُهُ على الله ﴾.[2] ﴿وأنْ تعْفوا أقْرَبُ للتَّقْوى﴾.[3]

﴿إنّ الله يأمــرُ بــالعدلِ والإحسانِ وإيتاءِ ذي القربى وينـهى عــن الفحشــاءِ والمنكرِ والبغي يعظُكُم لعــلّكم تذكّرون﴾.[4]

(وإن عاقبْتم فعاقبوا بمثلِ ما عُوقبتم به ولئِنْ صبرتُم لهو خيرٌ للصابرين)[5]

﴿وجزاءُ سيئةٍ سيئةٌ مثلُها فمن عفا وأصلحَ فأجرُهُ على اللهِ إنه لا يحبُّ الظالمين. ولَمَنِ انتصر بعدَ ظُلمهِ فأولئكَ ما عليهمْ من سبيلٍ. إنما السّبيلُ على الذينَ يَظْلمُون الناسَ ويبغون في الأرضِ بغيرِ الحقّ أولئك لهم عذابٌ أليمٌ. ولَمَن صَبَرَ وغَفَرَ إنّ ذلك لَمِنْ عَزْمِ الأمورِ﴾ [6] ﷺ .

---

[1] الآية ١٩٩ من سورة الأعراف.
[2] الآية ٤٠ من سورة الشورى .
[3] الآية ٢٣٧ من سورة البقرة.
[4] الآية ٩٠ من سورة النحل .
[5] الآية ١٢٦ من سورة النحل .
[6] الآيات ٤٠-٤٣ من سورة الشورى .

هذه بعضُ تعاليمِ الإسلامِ الساميةُ، والمبادئُ العظيمةُ، والأخلاقُ النبيلةُ، والأهداف الإنسانيةُ القائمةُ على العدلِ والعفوِ والرحمةِ والتسامحِ وهي التي ضمنَتْ للإسلام البقاءَ والاستمرارَ رغمَ المؤامراتِ الكثيرةِ، والضرباتِ المتتاليةِ التي وُجِّهَتْ إليه عبرَ القرونِ الماضيةِ.

وبنظرةٍ تأمّليةٍ واسعةٍ لهذه الوصيةِ الجامعةِ التي أوصى بها نبيُّ الإسلامِ محمد ﷺ أمراءَه وقوّادَ جيوشِه وسراياه حين يرسلُهم إلى الجهادِ يتبيَّنُ لنا مدى التزامِ المسلمين بها ظاهراً وباطناً، والعمل بها قلباً وقالباً، الأمرُ الّذي جَعلَ النّاسَ يؤمنون بهِ ويُقبلون عليه أفواجاً، ويدخلون فيه عن قناعةٍ وطواعيةٍ يقولُ عليه الصلاة والسلامُ : (اغزوا باسم اللهِ، وفي سبيلِ اللهِ ، قاتلوا مَنْ كفرَ باللهِ، اغزوا ولا تغلّوا ولاتغدروا، ولاتمثّلوا ولا تقتلوا وليداً) ... ومن خطبةِ لأبي بكرٍ ﷺ حين أرسل جيشَهُ إلى الشام حيث قال لهم : لا تخونوا، ولا تغدروا، ولا تقتلوا طفلاً صغيراً، ولا شيخاً كبيراً، ولا امرأةً، ولا تعقروا نخلاً ولا تُحرقوه، ولا تقطعوا شجرةً مثمرةً، ولا تذبحوا شاةً ولا بقرةً ولا بعيراً إلاّ لمأكلة).

وفي ذلك كانوا المثلَ الأعلى في العدلِ والصدقِ والإحسانِ والتسامحِ والحلمِ والوفاءِ بالعهد، وعدمِ الظلمِ والغدرِ والعدوان، عملاً بقول الحقِ تبارك وتعالى : ﴿وقاتلوا في سبيــلِ الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إنّ الله لا يــحبُ المعتدين﴾[1].

﴿ولا تقاتلوهم عند المسجدِ الحرامِ حتى يقاتلوكم فيه فإنْ قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاءُ الكافرين . فإنِ انتهَوا فإن الله غفورٌ رحيمٌ ﴾[2].

﴿فمــن اعْــتدى عليكم فاعتدُوا عليه بمثلِ ما اعتدى عليكم واتّقُوا الله واعلموا أنّ الله مع المتّقين﴾[3] ﷺ .

والإسلامُ حين يقررُ هذه الأمورَ العظيمةَ، ويضعُ هذه المبادئَ الساميةَ لا يضعُها لتبقى سطوراً في الكتبِ أو كلماتٍ يردّدُها الخطباءُ، ويتغنون بها على المنابرِ، ويحلمُ بها المصلحونَ وهداةَ الإنسانية، إنما يضعُها لتكونَ الواقعَ العمليَّ للناسِ، ولتتجلّى في حياةِ المسلمين وسلوكِهِم، وتعاملهم مع الأعداءِ،

---

(1) الآيات من سورة البقرة.
(2) الآيتان ١٩١و١٩٢ من سورة البقرة.
(3) الآية ١٩٤ من سورة البقرة.

ولقد تجسدَ ذلكَ في حياة النبي ﷺ وخلفائهِ الأربعةِ ﷺ ، وفي فتراتٍ متقطعةٍ في العهود التاليةِ.

شروط الصلحِ

انطلاقاً من سماحةِ الإسلامِ وعَفْوِهِ وعدالتِهِ، ومن الرحمةِ الواسعةِ التي تجلَّتْ في شخصيةِ صلاحِ الدينِ السمحةِ وافق على الصلحِ، ومال إلى السلمِ واشترط عليهم الشروطَ التاليةَ :

أن يؤديَ كلُّ رجلٍ منهم عن نفسهِ عشرةَ دنانيرَ، وعنِ المرأةِ خمسةَ دنانيرَ، وعن كلِّ صغيرٍ وصَغيرةٍ دينارين، ومَنْ عجزَ عنِ دفعِ ذلك كان أسيراً للمسلمين. وأنَ تكونَ الغلاتُ والأسلحةُ والدورُ للمسلمين.

وأن يتحوّلَ الفرنجُ من القدسِ إلى مدينةِ صورٍ.

ومَنْ لم يلتزمْ هذه الشروطَ ويؤديَ ما عليه خلالَ أربعين يوماً فهو أسيرٌ.

فكان جملةُ مَنْ عجزَ عن أداءِ ذلك ستةَ عشر ألفاً من رجالٍ ونساءٍ وولدانٍ أصبحُوا أسرى عند المسلمين بموجبِ الشروطِ السابقةِ.

وفي يوم الجمعةِ السابعَ والعشرين من شهرِ رجبَ وقبل صلاةِ الجمعةِ، وفي ذكرى الإسراءِ برسول الله ﷺ من المسجدِ الحرامِ إلى المسجدِ الأقصى دخل المسلمون مدينةَ بيتِ المقدسِ تحت قيادةِ السلطان صلاح الدينِ وسْطَ فرحةٍ عامرةٍ، وتهليلاتٍ وتكبيراتٍ عاليةٍ تجاوبَتْ أصداؤها في جنباتِ المدينةِ وما حولَها، ابتهاجاً بالنصرِ والتحريرِ، وطردِ الغزاةِ المعتدين، وتطهيرِ بيتِ المقدسِ والمسجدِ الأقصى وقبة الصخرةِ من مظاهرِ الشركِ والوثنيةِ، وآثارِ العُدوانِ الظالمِ الغاشمِ.

لقد كان يوماً عظيماً ومشهوداً، ونصراً مؤزراً، وفتحاً مبيناً يومَ دخل الفاتحونَ المسلمون بيت المقدسِ تعلوهُمُ المهابةُ والجلالُ، وتحوطُهم الأبهةُ والجمالُ، وتحُفُّهمُ الرحمةُ الإلهيةُ، وتحفظُهُمْ ملائكةُ السماءِ العلويةِ، وكأنَّ هذا الفتحَ المبينَ يشبهُ فتحَ مكةَ يومَ دخلها رسولُ الله ﷺ بجلالِه وجمالِه وهيبته وتواضعِه وهو يتلو قولَ الحقِ تبارك وتعالى (وقلْ جاء الحق وزهق الباطلُ إنّ الباطلَ كان زهوقاً).

ثمَّ أمرَ بإزالةِ الأصنامِ ومظاهرِ الشركِ من البيتِ العتيقِ حتى يؤديَ الرسالةَ الإنسانيةَ العظيمةَ التي من أجلِها رفعَ

إبراهيمُ واسماعيلُ قواعدَهُ، وهي عبادةُ اللهِ الواحدِ الأحدِ الذي لم يلِدْ ولم يُولدْ ، ولم يكنْ له كفواً أحدٌ .

تطهيرُ المسجدِ الأقصى

وقام المسلمون يداً واحدةً بدافعِ الغيرةِ على المسجدِ الأقصى، وتطهيرِهِ من أرجاسِ الفرنجِ، فأخرجُوا ما كان فيه من صُلبانٍ ورُهبانٍ وخنازيرَ وخمورٍ وخرّبوا دورَ الداوية،[1] وكانوا قد بنَوها غربيَّ المحرابِ الكبيرِ، واتّخذوا المحرابَ حمارةً، فنظفوه وطهّروه من جميع ذلك وأعادوهُ إلى ما كان عليه قبل أن تدنِّسَهُ يدُ الكفرِ والاحتلالِ.

وغسَّلوا الصخرةَ بالماءِ الطاهرِ، وأتبعوهُ بماءِ الوردِ والمسكِ والطيبِ الفاخرِ، حتى بدَتْ آيةً في الجمالِ، وأُبرزَتْ للناظرين، بعد أن كانَتْ مستورةً مخبوءةً عنِ الزائرين، وأُنزِلَ الصليبُ عن قبتها، وعادَتْ إلى حرمتها وكأنها لم تُصَبْ بأذىً، وقد كان الفرنجُ قد أخذوا منها قطعاً نادرةً، ولوحاتٍ ذهبيةً فاخرة فباعوها وتعذّرَتْ إعادتُها.

---

[1] الداوية : هم فرسان المعبد.

وأمرَ السلطان صلاحُ الدين رحمهُ الله تعالى بإزالة ما حولَها من الصورِ والتماثيلِ والمنكراتِ، وأمر بتطهيرِها من كلّ ما يعيبُها أو يمسُّ بمكانتِها وقدسيتِها، وضربَ على ما حولها من نوافذَ بأبوابٍ من حديد، ورتّب لها إماماً دائماً ووقف عليه رزقاً جيداً، وكذلك عملَ للمسجدِ الأقصى، وبنى موضعَ الكنيسةِ المقامة على قبر حنّةَ أمّ مريمَ مدرسةً يُقالُ لها الصلاحيةُ والناصريةُ. وعيّن عليها رواتبَ ضخمةً لتلاوة القرآنِ في أنحاءِ المسجدِ الأقصى وقبةِ الصخرةِ على أن لاتنقطِعَ التلاوةُ فيهما إلاّ في وقت أداء الصلاةِ.

ولقَد تنافَسَ بنو أيوبَ والأمراءُ والقادةُ والأثرياءُ في تقديم كل ما فيه خيرٌ وتقربٌ من الله ﷻ ، وخدماتٌ جليلةٌ للمسجدِ الأقصى والصخرةِ والفقراءِ وعزم صلاحُ الدين على هدمِ القيامةِ وجعلِها دكاً لتنحسمَ مادةُ الفرنجُ من بيتِ المقدسِ نهائياً وإلى الأبد، فقيل له : إن النصارَى لا يتركون الحجَّ إلى هذه البقعةِ ولو كانت قاعاً صفصفاً، ولقد فتح هذا البلدَ قبلك أميرُ المؤمنين عمرُ بنُ الخطابِ وترك هذه الكنيسةَ بأيديهم، ولك في ذلك أسوةٌ حسنةٌ، فتخلّى عن فكرةِ هدمِها وتركها

كما هي تأسياً بعمرَ ﷺ ، وترك لها أربعةً من النصارى يخدمونها، وأمر بهدمِ المقابرِ التي كانت عند بابِ الرحمةِ، فأزالَها، وعفا آثارَها، وهدم ما كان هناك من القباب.

وأمرَ بإطلاقِ سراحِ أسرى المسلمين الذين كانوا في سجونِ الفرنجِ بالقدسِ، وأحسَنَ إليهم، وأكرَمَهُم، وأطلق لهم إعطاءاتٍ سنيةً، وردَّهم إلى أهليهم مُحمّلين بالعطايا والكساءِ والاحترامِ والتكريمِ.

وكما أحسَنَ إلى أسْرى المسلمين، أحسَنَ أيضاً إلى الفرنجِ، فأطلق سراحَ الرجالِ والنساءِ والصبيان، وخلع عليهم من العطايا والأموالِ ما يجلُّ عنِ الوصفِ، خاصّةً لبنات الملوكِ والأمراءِ، ووقَعَتِ المسامحةُ منه لكثيرٍ منهم، وشُفِّعَ في أناسٍ كثيرين، فعفا عنهم، وأحسَنَ إليهم، ذلك أنه كان رحمَهُ اللهُ تعالى حليماً كريماً، متسامحاً مقداماً، شجاعاً نبيلاً رحيماً، الأمر الذي بَهَرَ أسرى الفرنجِ، وأثار إعجابَهم، وجعلهم يقدمون إليه، ويقبّلون يديه، حتى إنّ منهم مَنْ دخل الإسلامَ حيث رأى منه المعاملةَ الحسنةَ، والصفحَ الجميلَ، والعفوَ الكريمَ.

وكأني حين أكتبُ هذه الكلمات، وأصوّرُ هذا المشهدَ الفذَّ أنتقلُ بخيالي إلى مكةَ المكرّمةَ يومَ دخَلها رسولُ الله ﷺ منتصراً، فاجتمعَ الناسُ إليه، ووقفوا أمامهُ في هيبةٍ وجلالٍ ينتظرون العقابَ الأليمَ الذي سينــزلُهُ بهمُ النبيُّ ﷺ ، الذي قال لهم : ما تظنون أني فاعلٌ بكم ...؟

قالوا : خيراً ، أخٌ كريمٌ وابنُ أخٍ كريمٍ .

فقال : اذهبُوا فأنتمُ الطلقاءُ، (لاتثريبَ عليكمُ اليومَ يغفرُ اللهُ لكم وهو أرحمُ الراحمين)[1] فكان نتيجةَ هذا العفوِ الكريمِ، والخُلُقِ العظيم أنْ دخلَ الناسُ في دينِ اللهِ أفواجاً عن رضىً وطواعيةٍ.

وكذلك كان خُلُقُ صلاحِ الدينِ رحمه الله تعالى يتسمُ بالعفوِ والصفحِ والمعاملةِ الحسنة تأسياً برسولِ الله ﷺ ، معلمِ البشريةِ الخيرَ والصلاحَ والفلاحَ.

وكذلك حصل لصلاحِ الدينِ يومَ فتحَ بيتِ المقدسِ، فدخل الفرنجُ في دينِ اللهِ أفواجاً عن إيمانٍ وقناعة، ودخلوا في صفوفِ المسلمين وقاتلوا معهم، وجعلوا سيوفَهُمُ التي كانت

---

[1] الآية ٩٢ من سورة يوسف.

عليهمُ توجّهُ معهم إلى رقابِ أهلِ الكفرِ والشرِّ والعُدوانِ من الفرنجِ وغيرهم من أعداءِ اللهِ والدينِ والتاريخِ والإنسانيةِ.

أولُ جمعةٍ أقيمَتْ ببيتِ المقدِسِ

علمنا مما تقدم أنّ المسلمين دخلوا بيت المقدسِ يومَ الجمعةِ قبل الصلاةِ، فلم يتمكنوا من إقامتها لضيقِ الوقتِ، وانشغالهم بالفتحِ والحذرِ من تحركاتِ العدوِ وغدرِهِ، وإنما أقيمَتْ في الجمعةِ التاليةِ بعد تطهيرِ المسجدِ الأقصى من الصلبان والنواقيسِ وجميعِ مظاهرِ الكفرِ، وإعادتِهِ إلى سالفِ عهدِهِ مما كان عليه من مظاهرِ التوحيدِ والإيمانِ، ونُوديَ فيه بالأذانِ، وتُليَ فيه القرآنُ وأصدرَ السلطانُ صلاحُ الدينِ مرسوماً وهو في قبةِ الصخرةِ مفادُهُ : أن يكونَ القاضي محيي الدينِ بنُ الزكي اليومَ خطيباً وهو الذي نظّم معنى الرؤيا التي رآها مجدُ الدين بنُ جُهيلٍ الشافعي التي تقدم الحديثُ عنها، وهي قولُهُ :

وفتحُكمُ حلبَ الشهباءَ في صفرٍ　　قضى لكم بافتتاح القدسِ في رجبِ

فأذن المؤذنُ لصلاةِ أولِ جمعةٍ بعد الفتحِ والتحريرِ، وذلك في الرابع من شهرِ شعبانَ بعد الفتحِ بثمانيةِ أيامٍ، فنُصبَ المنبرُ إلى جانبِ المحرابِ، وبُسِطَ السجادُ، وعُلِّقَتِ القناديلُ، وجاءَ الحقُّ، وبطل الباطلُ، وضاق المسجدُ بأهله، وبكى المسلمون بكاءَ الفرحِ، وسكبوا دموعَ الصدقِ والسرورِ، وهتفتِ الحناجرُ بنشيدِ التوحيدِ، وتلوا قولَ الإخلاصِ ، وهتفوا بـــ : قل هو الله أحد. اللهُ الصمدُ. لم يلدْ ، ولم يولَدْ . ولم يكنْ له كفواً أحد.

ثم ارتدى القاضي محيي الدين بنُ الزكي البردَةَ السوداءَ، وصَعِدَ المنبرَ وسطَ بكاءٍ ونحيبِ المسلمين تعبيراً عن فرحتِهِمُ الغامرةِ، وبهجتِهِمُ العظيمة.

ثم ابتدأ خطبتَهُ السنّية بلغة فصيحة بليغة، افتتحها بقول الحقِ تبارك وتعالى : (فقُطع دابرُ القوم الذين ظلموا والحمدُ لله رب العالمين)[1] ثم ذكر شرفَ البيتِ المقدّسِ ومكانتَهُ عند المسلمين، وما ورد فيه من الفضائلِ العظيمةِ، والدلائلِ والأماراتِ السنّيةِ في القرآنِ الكريمِ والسنةِ النبوية المطهرةِ.

---

[1] الآية ٤٥ من سورة الأنعام

نصُّ الخطبةِ

ذكر ابنُ الزكي يومئذٍ خطبةً جامعةً ، تشتملُ على مفرداتٍ جزلةٍ قويةٍ، وعباراتٍ فخمةٍ بليغةٍ، قال فيها :

(الحمدُ للهِ معزِّ الإسلامِ بنصرِهِ، ومذلِّ الشركِ بقهرِهِ، ومصرفِ الأمورِ بأمرِهِ، ومزيدِ النعمِ بشكرِهِ، ومستدرجِ الكافرين بمكرِهِ، الذي قدَّرَ الأيامَ دُوَلاً[1] بعدلِهِ، وجعل العاقبَةَ للمتقين بفضلِهِ، وأفاض على العبادِ من طلِّه وهطلِهِ، الذي أظهر دينَهُ على الدينِ كلِّه، القاهرِ فوق عبادِهِ فلا يمانَعُ، والظاهرِ على خليقتِهِ فلا ينازَعُ، والآمرِ بما يشاءُ فلا يراجَعُ، والحاكمِ بما يريدُ فلا يدافَعُ.

أحمَدُه على إظفارِهِ وإظهارِهِ، وإعزازِهِ لأوليائه ونصرةِ أنصارِهِ، ومطهرِ بيت المقدسِ من أدناسِ الشركِ وأوضارِهِ، حمدَ مَنْ استشعَرَ الحمدَ باطنَ سرِهِ، وظاهرَ أجهارِهِ.

وأشهد أن لا إله إلاّ اللهُ وحده لاشريكَ له الأحدُ الصمدُ، الذي لم يلد ولم يولَدْ. ولم يكنْ له كفواً أحدٌ، شهادةَ

---

[1] دُولاً : أي أن الأيام متداولة يوم بكذا، ويوم بكذا.

مَنْ طَهَّرَ بالتوحيدِ قلبَهُ، وأرضى به ربَّهُ، وأشهدُ أنَّ محمداً عبدُهُ ورسولُهُ، رافعُ الشكرِ، وداحضُ الشركِ، ورافضُ الإفكِ، الذي أسريَ به من المسجد الحرامِ إلى هذا المسجدِ الأقصى، وعُرِجَ به منه إلى السماوات العُلى، إلى سدرةِ المنتهى، عندها جنةُ المأوى، مازاغ البصرُ ماطغى، صلى الله عليه وسلم وعلى خليفته الصدّيقِ السابق إلى الإيمانِ، وعلى أميرِ المؤمنين عمرَ بنِ الخطابِ أوّلِ مَنْ رفَعَ عن هذا البيتِ شعارَ الصلبانِ، وعلى أمير المؤمنين عثمان بنِ عفانَ ذي النورينِ جامعِ القرآنِ، وعلى أميرِ المؤمنين علي بنِ أبي طالب مزلزل الشركِ، ومكسِّرِ الأصنامِ، وعلى آلهِ وأصحابهِ والتابعين لهم بإحسانٍ).

ثم ذكر موعظةً عظيمةً تشتملُ على تغبيطِ الحاضرين بما يسَّرهُ الله على أيديهم من نصرٍ مبينٍ، وفتحٍ عظيمٍ، وأنهما من عند اللهِ الواحدِ القهارِ القائلِ في كتابهِ العزيز : (قل للذين كفروا ستُغلَبون وتُحشَرون إلى جهنم وبئسَ المهادِ . قد كان لكم آيةً في فئتين التقتا فئةٌ تقاتلُ في سبيلِ اللهِ وأخرى كافرةٌ

يروهُم مثلَيْهم رأيَ العينِ واللهُ يؤيدُ بنصرِهِ مَنْ يشاءُ إنّ في ذلك لعبرةً لأولي الأبصار.)[1]

ثم ذكر فضائلَ المسجدِ الأقصى ومكانتَهُ عند المسلمين، وبيّنَ أنه أولُ القبلتين، وثاني المسجدَين، وثالثُ الحرمين، وأنه لاتُشدُّ الرحالُ بعد المسجدين إلاّ إليه، ولاتُعقَدُ الخناصرُ بعد الموطنين إلاّ عليه، وإليه أسرِيَ برسولِ الله ﷺ من المسجدِ الحرامِ، وصلّى فيه بالأنبياءِ والرسُلِ الكرامِ، ومنه كان المعراجُ إلى السماواتِ العُلى، ثم عاد إليه، ثم سار منه إلى المسجدِ الحرامِ على البراقِ.

وهو أرضُ المحشرِ والمنشرِ يومَ التلاقِ، وهو مقرُّ الأنبياءِ ومقصدُ الأولياءِ، وقد أُسِّسَ على التقوى من أولِ يومٍ.

ثم ذكر تمامَ الخطبتين، ثم دعا للخليفةِ الناصرِ العباسي، وللسلطانِ الناصرِ صلاحِ الدينِ.

هــذا ... وبعــد فراغِهِم من أداءِ صلاةِ الجمعةِ علم صلاحُ الدينِ رحمهُ اللهُ تعالى أنّ ابنَ جهبلٍ هو الذي قال أولاً :

---

[1] الآيتان ١٢-١٣ من سورة آل عِمران.

وفتحُكمُ حلبَ الشهباءَ في صفرٍ ... الخ وليس ابنَ الزكي، فأكرمَهُ بوظيفةِ التدريسِ على الصخرةِ، وأجزلَ له العطاءَ، وأحسَنَ عليه الثناءَ، وأبقى ابنَ الزكي خطيباً للمسجدِ الأقصى.

من غرائب التفسير

جاء في تفسير أبي الحكمِ الأندلسي المعروف بابنِ برجانَ، في أولِ سورةِ الرومِ أخبارٌ عن فتحِ بيتِ المقدسِ، وأنهُ يُنـــزَعُ من أيدي النصارى سنةَ ثلاثٍ وثمانينَ وخمسمائةٍ.

قال السخاوي معلقاً على ذلك : (ولم أَرَهُ أخذ ذلك من علمِ الحروفِ، وإنما أخذه، فيما زعم من قولِهِ (ألم . غُلِبَتِ الرومُ في أدنى الأرضِ وهم من بعدِ غلبِهِم سيغلبون في بضع سنين)[1] فبنى الأمرَ على التاريخِ كما يفعلُ المنجمون، فذكر أنهم يُغلَبون في سنةِ كذا وكذا، ويَغلِبون في سنةِ كذا وكذا على ما تقتضيه دوائرُ التقدير.

ثم قال : وهذه نجابةٌ وافقَتْ إصابةً، إنْ صحَّ، قال ذلك قبل وقوعِهِ، وكان في كتابِهِ قبل حدوثه.

---

[1] الآيات ١-٢-٣ من سورة الروم.

قال : وليس هذا من قبيلِ علم الحروفِ، ولا من بابِ الكراماتِ والمكاشفاتِ، ولا يُنالُ في حسابٍ.

وقد ذكر ابنُ برجانَ ذلك في تفسيرِهِ في حدودِ سنةِ اثنتين وعشرين وخمسمائةٍ أي في زمنِ الملكِ نورِ الدين الشهيدِ رحمه اللهُ تعالى الذي يُروى أنه حين سمع بهذا التفسير تمنّى أن يعيشَ إلى سنةِ ثلاثٍ وثمانين وخمسمائة، فتهيأ لأسبابِ ذلك حتى إنّهُ أعدَّ منبراً عظيماً لبيتِ المقدسِ إذا تمَّ فتحُهُ على يديه، فلم يتحققْ أملُهُ فمات قبل ذلك.

فلما تمَّ الفتحُ على يد صلاحِ الدينِ رحمه اللهُ تعالى، أرسل إلى مدينةِ حلبَ فاستحضرَ المنبرَ المذكورَ، فوضعه إلى جانبِ المحرابِ في المسجد[1] الأقصى أعاده اللهُ تعالى إلى ظلِّ الإسلامِ بمنِّه وكرمِهِ كما أعادَهُ في زمنِ صلاحِ الدينِ الأيوبي رحمَهُ اللهُ تعالى ... آمين.

---

[1] البداية والنهاية بشيءٍ من التصرف.

حصارُ مدينةِ صورٍ

في الخامسِ والعشرينَ من شهرِ شعبانَ، وبعد فتحِ بيتِ المقدسِ بثمانيةٍ وعشرينَ عاماً غادر السلطانُ صلاحُ الدينِ بيتَ المقدسِ قاصداً مدينةَ صورٍ بالساحلِ الشامي، وكان قدِ استحوذَ عليها بعد وقعةِ حطينَ رجلٌ من الفرنجِ يُقالُ له (المركيز)[1] فحصنها وضبط أمرَها، وحفر حولها خندقاً من البحرِ إلى البحرِ، وإذا بهِ يُفاجأُ بجيوشِ المسلمين تحاصرُهُ براً وبحراً، فصمد في وجهِهم، وقاومهم واستطاع أن يستوليَ على خمسِ قطعٍ من أسطولِهم ، الأمرُ الذي أغضبَ المسلمين وجعلهم يقفون واجمين حزناً وتأسفاً على ما أصابهم، وقد دخل عليهم فصلُ الشتاء ببردهِ وثلجهِ وطولِ لياليه، خاصةً وقد أوشكَتْ مؤونتهم أن تنفدَ، فسألوا السلطان صلاحَ الدينِ أن يذهبَ بهم إلى دمشقَ للراحةِ، واستعادةِ القوةِ والنشاطِ، وانتهاءِ فصل البردِ، ثم يعودون إليها وهم أشدُّ قوةً، وأكثرُ نشاطاً، وأعظمُ حيويةً واستعداداً، فأجابهم إلى ذلك وهو مترددٌ، فمرَّ

---

[1] المركيز أو المركيس:لقبٌ لرجل شريف من أغنياء الفرنج، وهو بمثابة حاكم.

بطريقِهِ على عكا فنـــزل بقلعتِها، وأسكَنَ ولَدَهُ الأفضلَ برجَ الداوية، فأشار عليه بعضُهم بتخريبِ مدينةِ عكا خوفاً من عَوْدِ الفرنج إليها، فلم يفعلْ بل أقر بعمارتِها، وترميم ما تهدّم منها، وتجديدِ الأماكن الهامةِ فيها.

ثمّ توجَّهَ إلى دمشقَ مؤيداً منتصراً، وأقبل إليه الملوكُ والأمراءُ من كلِ مكانٍ بالهدايا الثمينة، والتحفِ الفاخرة.

وجاءه كتابُ الخليفةِ يحملُ عباراتِ اللومِ والعتابِ في عدةِ أمورٍ، منها : أنهُ بعث إليه ببشارةِ فتحِ حطينَ شاباً بغدادياً كانَ وضيعاً عندهم، لاقدرَ لهُ ولا مكانةَ بين الناسِ، في حين أرسلَ ببشارةِ فتحِ القدسِ مع فارسٍ مشهورٍ، وأنه لقّبَ نفسَهُ بالناصرِ مضاهاةً للخليفة، وغيرُ ذلك ...!!

فتلقّاها صلاحُ الدينِ رحمهُ اللهُ تعالى بقلبٍ واسعٍ كبيرٍ، وصدرٍ حليمٍ رحيبٍ، وأظهرَ البشرَ واللطفَ والتواضعَ، والسمعَ والطاعةَ، وأرسلَ إليهِ يعتذرُ مما وقع منه بغيرِ قصدٍ أو سوءِ نيةٍ، فقال : إنّ الحربَ كانَتْ قد شغَلَتْهُ عنِ التروّي في كثيرٍ منَ الأمور.

وأما لقبُهُ بالناصرِ، فقد كان من أيامِ الخليفةِ المستضيءِ.

وقال له بكلٍ لطفٍ وتواضعٍ : ومع هذا فمهما لقّبني أميرُ المؤمنين فلا أعدلُ عنه، وأظهر له التأدبَ والاحترامَ، حتى أنساه ما عاتبه فيه ولامَهُ عليه.

حصارُ حصنِ كوكب [1]

خرج صلاحُ الدين من دمشقَ فحاصرَ حصنَ كوكب فرآهُ منيعاً صعبَ الاختراقِ فترك فيه الأميرَ قايمازَ البجميَّ في خمسمائة فارسٍ يحاصرونه ويضيقون على أهلهِ المسالكَ، ثم توجَّهَ إلى صغدَ[2] وكانَتْ للداويةِ، فترك فيها طغرلبك الجامدار مع خمسمائةِ فارسٍ أيضاً ليقطعوا عليهم طريقَ الإمدادِ والتموينِ، وكذلك بعث إلى الكرك[3] مَنْ يحاصرُ أهلها ويضيّقُ عليهم ليعيدَ هجومَهُ على هذه الأماكنِ بعد أن يصيبَهُم الوهنُ والضعفُ ويصبحوا عاجزين عنِ المقاومةِ فيتسنّى له فتحُها بأيسرِ أمرٍ.

---

(1) لم يحدد ياقوت موقع هذا الحصن، ولم أهتد إليه.

(2) صفد بالغين أو الفاء : مدينة في جبل عامل بلبنان مطلة على حمص بالشام.

(3) الكرك : قرية في أصل جبل لبنان . انظر معجم البلدان.

ولما رجعَ إلى دمشقَ وجدَ وكيلَ خزانتِه قد بنى له داراً عظيمةً مدهشةً في الجهةِ الجنوبيةِ من القلعةِ، فغضبَ عليه وعزَلَهُ، وقال له : إنا لم نُخلَقْ للمقامِ بدمشقَ ولا بغيرها من البلاد، وإنما خُلقنا لعبادة الله ﷻ والجهاد في سبيله، وهذا الذي عملتَهُ مما يثبّط النفوسَ ويقعدُها عمّا خُلقَتْ له.

ثم خرج من دمشقَ يبحثُ عن جهادٍ جديد، فقصدَ البقاعَ، ومنه إلى حمصَ وحماةَ، وعسكر على ضفة العاصي، وضُربَتْ له خيمةٌ عظيمةٌ يستقبلُ فيها أمراءَ الجيوشِ القادمين إليهِ من الجزيرةِ وغيرها للجهادِ في سبيلِ الله تحت قيادته، فمضى بهم إلى الساحلِ الشامي، ففتح طرطوسَ[1] وغيرها من الحصونِ، ثم فتح جبلةَ[2] واللاذقيةَ[3]، وكانتا من أحصن المدن عمارةً، وأغناها زينةً وجمالاً.

ومضى في الساحل الشامي وجبالهِ يفتحُ البلادَ والحصونَ، ويسقطُ العروشَ، ويحتلُّ القلاعَ، ويكسرُ شوكةَ الفرنجِ، ويذلُّ الشركَ وأهلَهُ حتى دانَتْ له مناطقُ الساحلِ

---

[1] طرطوس : مدينة عظيمة مشهورة ومعروفة، تقع على البحر في الساحل السوري.
[2] جبلة : مدينة معروفة في الساحل السوري قرب اللاذقية.
[3] اللاذقية : مدينة عظيمة مشهورة من أهم مدن الساحل السوري.

بأسرِهِ بعد أنْ فتحَ قلعةَ صهيونَ[1] وبكاسَ والشغرِ وهما قلعتان حصينتان على العاصي فتحهما عنوةً بقوةِ الرجالِ وحدِّ السيفِ.

فتح حصنِ برزية [2]

وهـــي قلعةٌ عظيمةٌ تقعُ على جبلٍ شاهقٍ منيعٍ، تحتها أوديةٌ عميقةٌ جداً يُضرَبُ بها المثلُ في التحصينِ والَمنعَةِ وعُسرةِ الوصول إليها فضلاً عن اقتحامها، ولقد حاصرها صلاحُ الدين حصـــاراً شـــديداً، وأحاطها بالمجانيقِ القويةِ الضخمةِ، وجعلَ جيشـــهُ ثلاثَ فرق كلُ فرقة تقاتلُ على حدة، حتى إذا تعبوا خَلَفَـــتهُم الفرقةُ الأُخرى، وهكذا، ولايزالُ القتالُ مستمراً ليلاً ونهاراً بلا توقفٍ ولا انقطاعٍ.

ولقـــد أبـــدى المسلمون في هذه الموقعةِ بطولةً نادرةً، وشجاعةً فائقةً أبهَرَتِ الفرنجَ وأثارَتْ دهشتَهم واستغرابَهم.

---

[1] وهـــي معروفة اليوم بقلعة صلاح الدين، تقع في محافظة اللاذقية، على ذروة جبل قرب الحفة في مكان حصين، بناها الصليبيون سنة ٥١٣ هـــ، ثم أخذها منهم صلاح الدين سنة ٥٨٤ بأيسر أمر رغم منعتها وحصانتها.

[2] لم يذكره ياقوت، ولم أهتد إلى تحديد موقعه.

هــذا ... وكــلما تبدّلَتْ فرقةٌ وجاءَتْ أخرى تقاتلُ مكانها لتذهبَ الأولى إلى الراحة اعتقدَ جنودُ الفرنجِ أنَّ أمداداً كــثيرةً وهائلــةً تصلُ إلى المسلمين تباعاً بلا انقطاعٍ، فأُلقيَ الرعبُ في قلوبهِم، ووَهَنَتْ قواهم، وضعفُوا عن متابعةِ القتالِ، فغُلــبوا هــنالك وانقلَبوا صاغرين، وسقطتِ القلعةُ في أيدي المسلمين على يدِ الفرقةِ التي كان يقودها صلاحُ الدينِ رحمَهُ الله تعالى.

صلح إنطاكية

ثم ارتحــلَ عن ذلك ومعنى إلى حصنِ دربساكَ وحصنِ بغراسَ ففتحهما عنوةً بحدِّ السيف .

ثم سَمَتْ به همتُهُ العاليةُ وطموحُهُ الشديدُ إلى فتحِ إنطاكيةَ وذلك أنه فتح جميعَ ما حولها من المدنِ والقرى، فزحف إليها وحاصرها حصاراً شديداً، واستظهر عليها بكثرةِ الجنودِ، فراسلَهُ صاحبُها يطلبُ منه الصلحَ والهدنةَ وإطلاقَ ما عندهُ من أسرى المسلمين، فأجابه صلاحُ الدينِ إلى ذلكَ لعلمهِ أن بعضَ أفرادِ الجيشِ قد ضجرَ من القتالِ، وتاقتْ نفوسُهم إلى الراحةِ مع أهليهم، وتمّت الهدنةُ لمدة سبعةِ أشهرٍ، وأُطلقَ سراحُ

الأسرى فتوجَّهَ إلى حلبَ، فنـــزل بقلعتها ثلاثة أيامٍ، ثم مضى إلى حماةَ ومنها إلى دمشقَ، وكان ذلك في شهر رمضانَ المبارك، ولم يكدْ يدخُلُ دمشقَ حتى جاءتْهُ الكتبُ تحملُ إليهِ البشائرَ بفتحِ الكركِ وإنقاذهِ من أيدي الفرنجِ، وأراح اللهُ منهمُ العبادَ والبلادَ، وفرحَتْ بذلك السهولُ والجبالُ، فقُطِعَ دابرُ الذين ظلموا والحمدُ للهِ ربِّ العالمين.

فتحُ صفدَ وحصنِ كوكب

أقـــام صلاحُ الدين في دمشقَ النصفَ الأولَ من شهرِ رمضـــانَ مـــن سنةِ أربعٍ وثمانين وخمسمائة، ثم غادرها قاصداً صـــفدَ الـــتي كان قد حاصرها من قبلُ وترَكَ حولها خمسمائة فـــارسٍ على رأسِهِم طغرلبكَ الجامدار، فحاصرها في النصفِ الثاني من شهرِ رمضانَ تيمناً بهذا الشهر الكريمِ، شهر الخيراتِ والـــبركاتِ والـــنفحاتِ، شهرِ المعاركِ والغزواتِ، والملاحمِ والانتصاراتِ.

هذا ... وكان البردُ شديداً جداً، يكادُ الماءُ منه يصبحُ جليداً، فكانَتْ معاناةُ جندِ المسلمينَ حينئذٍ شديدةً، ومقاساتُهُمُ

البردَ صعبةً، ومكابدتُهُمُ الجوعَ والألَمَ قاسيةً، ولكنهم مع هذا كلِه صبروا صبراً جميلاً، وثبتوا ثباتاً مشرفاً، وصمدوا صمودَ الأبطالِ حتى ذُلِّلَتْ لهمُ الصعابُ، وسَهُلَ عليهمُ اقتحامُ الحصونِ والأسوارِ، فبدَتْ لهم راياتُ التسليم تخفقُ على رؤوسِ الحصونِ، وإذا السيوفُ أُلْقِيَتْ، والرماحُ تساقطَتْ، وأصواتُ الفرنجِ تناديهم وتطلبُ منهمُ الأمانَ، وتفتحُ لهمُ الأبوابَ، فدخلوها منتصرين مظفّرين يملؤهُمُ الفخرُ، ويزدهيهمُ النصر، وكان ذلك في الثامنِ من شهرِ شوال من السنة ذاتِها.

ثم سارَ منها إلى مدينةِ صور فاستسلمتْ فوراً، وألقَتْ إليه بقيادِها، وتبرأتْ من أنصارِها وأجنادِها وقوادِها، وتحققتْ بعد سقوطِ صفدَ أنها مقرونةٌ معها في أصفادِها.

ثم غادرها وسار يقودُ جيشَهُ إلى حصنِ كوكبَ، وكان معقلَ الاستبارية[1] كما أنَّ صفدَ كانت معقلَ الداوية، وكانوا أبغضَ أجناسِ الفرنجِ إلى السلطانِ لايكادُ يقبضُ على أحدٍ منهم إلاّ قتلهُ، ولقد حاصر تلك القلعةَ حتى استولى عليها،

[1] الفرسان الاستباريون : هم فرسان صليبيون كان مقرهم القدس بدار يأوي إليها مرضى الفرنج.

وقتلَ مَنْ فيها من الفرنجِ وأراحَ الناسَ من فسادَهم وشرورِهم، إلاّ مَنِ استسلم منهم فلقد عفا عنه وتركه وأحسنَ إليه.

موقعةُ عكا

خرجَتْ فلولُ الفرنجِ وخاصةً الفارِّين من مدينةِ صورٍ التي استسْلَمَتْ وألقَتِ السلاحَ، فسارَ هؤلاءِ فأحاطوا بمدينة عكا وحاصروها بغيةِ احتلالِها وأخذِها من أيدي المسلمين الذين تحصنوا فيها، وأعدوا لهذا الحصارِ ما يحتاجون إليه من حمايةٍ ومؤنٍ وموادٍّ غذائيةٍ، وفرسانٍ قادرين على حمايتها والدفاعِ عنها.

هذا ... وكان صلاحُ الدينِ مقيماً في دمشقَ فبَلَغَهُ خبرُ هذا الحصارِ، فجهَّزَ الجيشَ وسار مسرعاً إليها، فوجد الفرنجَ قد تجمّعوا حولها، وحاصروها حصاراً محكماً، وأحاطوا بها إحاطةَ السوار بالمعصم، فانقضَّ عليهم ودارَتْ بينه وبينهم معركةٌ قويةٌ وحاميةٌ، وصمد كلُّ فريقٍ في وجهِ صاحبِهِ صموداً

قوياً، وبدَتْ من الفريقين مقاومةٌ عنيفةٌ كلُ فريقٍ يحرصُ على التغلبِ على الآخرِ.

ولقــد أبلى المسلمون فيها بلاءً حسناً، وأظهروا فيها شـــجاعةً نادرةً استطاعوا أن يتغلبوا على أعدائِهم، ويبعدوهم عـــن أماكـــنِهم، ويفـــتحوا ثغرةً في قلب الجيشِ المُعادي، ثم ليجعلوها طريقاً يدخلون منه إلى باب القلعة.

هذا ... والقتالُ على أشدِّهِ قوياً ضارياً، المسلمون يوجهون كل طاقاتِهم وإمكاناتِهم للمحافظةِ على استمرار فتحِ الثغرةِ، وعدم تركِ فرصةٍ للفرنجِ أن يسدّوها.

والفـــرنجُ يستعملون كل ما يملكون من قوةٍ لسدِّ هذه الثغرةِ، وكأنَّ المعركةَ قد تحولَتْ إلى هذه الثغرةِ.

ولقـــد نجح المسلمون في التغلب على الفرنجِ فوسعوا الثغرةَ وأدخلوا منها الأمتعةَ والمعداتِ القتاليَةَ، ودخل السلطانُ صـــلاحُ الدين بنفسهِ يقود فرقةً إلى داخل المدينةِ، وبقيَتْ فرقةٌ أخرى تصدُّ الفرنجَ وتناوشُهم لتمنعهُم من دخولِها.

ولقد علا صلاحُ الدينِ على سورِ المدينةِ، ونظر إلى الفرنجِ وهم خارجها وحولها، فرأى كثرتَهم وعَدَدَهم وعُدَّتَهم،

ورأى السفنَ تفدُ إليهم من البحرِ في كل وقتٍ دون انقطاعٍ تحملُ إليهمُ الإمدادَ من المقاتلين والمؤنِ بكمياتٍ كبيرةٍ ، وأعدادٍ هائلةٍ، وهم في كل وقتٍ وحينٍ في ازدياد، ثم توجَّهَ إلى مخيمِهِ داخل مدينة عكا وهو حريصٌ على حمايتها والدفاعِ عنها مهما يكنِ الثمنُ باهظاً، والمعاناةُ شديدةً، والمعركةُ طويلةً.

وفي العشر الأواخرِ من شهرِ شعبانَ سنةَ خمسٍ وثمانين وخمسمائةٍ تجدَّد القتالُ، وبرز الفرنجُ من مراكبِهِم القادمةِ من البحرِ في نحوٍ من ألفَي فارسٍ وثلاثين ألفَ راجلٍ، فبرزَ إليهم صلاحُ الدينِ بجنودِهِ الشجعانِ فقاتلهم بمرجِ عكا قتالاً شديداً، وصمدوا في وجهِهِ صموداً قوياً لدرجةِ أنَّ عدداً من فرسانِ المسلمين هربوا أثناء القتالِ، وبقي غيرُهم ثابتين في أماكنِهِم جادّين في منعِ الفرنجِ من دخولِ عكا، حتى نصرَهم اللهُ تعالى نصراً مؤزراً، فكانتِ الدائرةُ على الفرنجِ الذين فقدوا أكثر من سبعة آلافِ قتيلٍ، ومَنْ بقيَ منهم فرَّ هارباً يطلبُ النجاةَ.

وبقي صلاحُ الدين رحمهُ اللهُ تعالى في مكانهِ ينتظرُ عودةَ الفرنجِ ليُعطيَهُم درساً آخرَ في عدمِ الاقتراب من بلاد

المسلمين، ولكنه تحولَ من هذا الموضع ليأخذَ مكاناً آخر يرابطُ فيه بعيداً عن روائحِ القتلى ، وخوفاً من انتشار الأوبئةِ والأمراضِ، وليأخذ الجنودُ قسطاً من راحةِ الأبدانِ والأعصابِ، ولكنه لم يعلمْ بأن تحولَهُ عن مكانِه الأولِ كان لصالح العدوِ مائة في المائة، فلقد اغتنموا هذه الفرصةَ فحفروا حول مخيماتهم خنادقَ كبيرةً وعميقةً، واتخذوا من ترابها سوراً شاهقاً، وجعلوا له أبواباً يخرجون منها متى أرادوا أن يخرجوا، وثبتوا في مكانِهم هذا وصار لهم موقعاً دفاعياً محصناً غايةَ التحصينِ.

أما المسلمون فحينما علموا بذلك ذُهلوا منه، وصُدموا بصورةٍ عنيفةٍ، وأدركوا أنهم همُ الذين أتاحوا لعدوّهم الفرصةَ ليتحصنوا في موقعِهم، وليتخذوا لأنفسهم ترساً طبيعياً واقياً، فاشتدَّ عليهمُ الأمرُ، وقويَ الخطبُ، وصارَ الداءُ عُضالاً، وازداد الحالُ وبالاً، اختباراً من اللهِ تعالى وامتحاناً، وهم يرون جنودَ الفرنجِ تأتيهم مدداً بشكلٍ دائمٍ ومستمرٍ تباعاً، فأدركوا أنَّ المناجزةَ باتَتْ صعبةً، وأُصيبوا بالمللِ وخيبةِ الأملِ.

فجعلَ صلاحُ الدينِ يراسلُ الملوكَ يستفزُّهم ويستنصرُهم، وكتب إلى الخليفة يطلعُهُ على حقيقةِ الأمرِ، ويصورُ لهُ الحالةَ التي يعيشُها، ويقاسي آلامها وهو في مربضِه

يراقبُ تدفقَ جنودِ الفرنجِ إلى ساحلِ عكا من البرِّ والبحرِ، فجاءَتْهُ الأمدادُ جماعات... جماعاتٍ ، ثم أرسل إلى مصر يطلبُ من أخيه العادلِ أنْ يُمدّهُ بما استطاع من قوة، فقدِمَ إليه بنفسهِ يقودُ الأسطولَ المصريَّ شخصياً، وجاءَهُ الأميرُ حسامُ الدينِ لؤلؤ ومعه خمسونَ قطعةً بحريةً.

فلما رأى الفرنجُ ذلك هابوهم، وخافوا منهم، وتحوّلَتْ مراكبُهم في البحر يمنةً ويسرةً، وشعروا بالإحباطِ يصيبُهم، وأحسّوا بخيبةِ الأملِ، وأيقنوا أنه لا قِبَلَ لهم في مواجهةِ هذه القوةِ الهائلةِ، التي فوجئوا بها و لم يحسبوا لها حساباً.

هذا ... ولقد اتصل العدوُّ بالمسلمين، ودخل المددُ والمؤنُ والموادُّ الغذائيةُ مدينةَ عكا على مرأىً ومسمعٍ من جيوشِ الفرنجِ الضخمةِ والكثيرةِ، ولم يستطيعوا منعَها أوِ التعرضَ إليها. وفرحَتْ بذلك نفوسُ المسلمين، وانشرحَتْ له صدورُهم، واطمأنّتْ به قلوبُهم، وشكروا اللهَ على ماهداهم، وحمدوه على ما أولاهم، وتفضّل به عليهم.

الفتنةُ

اجتمع جماعةٌ من الرهبانِ والقساوسةِ الذين أُخرجوا من بيتِ المقدسِ بعد فتحِهِ وتحريرِهِ، وذهبوا يطوفونَ البلدانَ، ويقطعون البراريَ والبحارَ يحرّضون الفرنجَ على المسلمين، ويحثّونهم على الانتصارِ لبيتِ المقدسِ، ويُوغرون صدورَهم، ويلفّقون الأكاذيبَ، ويختلقون التهمَ، ويذكرون لهم أنّ العربَ المسلمين أنزلوا بنصارى بيتِ المقدسِ سوءَ العذابِ، وقتلوهم بصورةٍ بشعةٍ ووحشيةٍ، وكذلك فعلوا بأهل السواحلِ من قتلٍ وسبيٍ وتشريدٍ وهدمِ منازلَ، وخرابِ ديارٍ.

وأنهم صوّروا صورةَ المسيحِ وصورةَ عربي آخرَ يضربُهُ ويؤذيهِ، فإذا سألوهم : مَنْ هذا الذي يضربُ المسيحَ ... ؟

قـــالوا : هذا نبيُّ العربِ يضربُهُ، ولايزالُ يضربُهُ ويجرحُهُ حتىَ ماتَ.

فيغضبون لذلك، ويبكون ويحزنون.

ثم اجتمعَ بعضُ الجاهلين منهم والمتعصبين لعقيدتِهِم فأقسموا أن ينتصروا لذلك، وينتقموا من المسلمين أشدَّ الانتقامِ.

فعند ذلك خرجُوا من ديارِهِم، وأُرْعِبَتْ أوربا كلُّها، واستنفَرتْ جيوشَها وقواتِها لنصرةِ دينِهِم ونبيِّهِم فيما يزعمون وحماية الصليبِ كما يدّعون.

وأخــذَتِ جــيوشُ الفــرنجِ تفدُ إلى عكا، وتنــزلُ السواحلَ الشاميةَ بأعدادٍ هائلةٍ وقوةٍ ضخمةٍ وقويةٍ، حتى ضاق بِهِمُ البرُّ والبحرُ، وغصَّ بِهِمُ السَاحلُ مع اتساعِهِ وطولِهِ وعرضِهِ.

وشاعَ الخبرُ بين المسلمينَ والفرنجِ بأنَّ ملكَ ألمانيا قد أقبل من جهةِ القسطنطينية بثلاثمائة ألفِ مقاتلٍ يريدُ احتلالَ الشامِ كلِّهِ وقتلَ أهلِهِ وتشريدَهُم انتصاراً لبيتِ المقدسِ وما فعلوه بأهلِهِ.

ولقدِ احتملَ المسلمونَ من هذا النبأ هماً عظيماً، وحسبوا للأمرِ حسابَهُ، خاصةً وهم يرون في كل لحظةٍ قواتِ الفرنجِ تتدفقُ عليهم من البحر كالسيل الجارفِ حتى ضاق بِهِمُ السهلُ والجبلُ مع ماهم فيه من حذرٍ ومراقبةٍ وحصارٍ قويٍ

وهائلٍ، فازدادوا هماً وأصبحوا أكثرَ حذراً، وأشدَّ تيقظاً واستعداداً لمواجهةِ العدوِ الشرسِ الذي جمع لهم كلَّ طاقاتِهِ، وشحذَ لهم جميعَ أنيابِهِ ومخالبِهِ .

في الوقتِ الذي ارتفعَتْ فيه معنوياتُ جنودِ الفرنجِ، وقويَتْ شوكتُهم فأخذوا يستعملون الغدرَ والمكرَ، وأساليبَ الفتنةِ والإثارةِ واللاأخلاقيةِ. لإغراء جنودِ المسلمين وإلهائهم عنِ القيامِ بالواجب المنوطِ بهم، وذلك بأنهمُ اختاروا ثلاثمائة امرأة من أجملِ نسائِهم وأشدّهنَّ فتنةً، وأكثرِهنَّ إثارةً وإغراءً، وأخرجوهُنَّ بغية القتالِ، وقد ألبسوهنَّ لباسَ المقاتلين من الرجالِ، حتى إذا أصبحوا على مقربةٍ من معسكرِ جنودِ المسلمين خلعوا عنهنّ لباسَ الرجالِ فبدّتْ شعورُهُنَّ، وكشفنَ لهم عن صدروهِنَّ، وأظهرنَ لهم مفاتنهُنَّ، ودخلْنَ بين رجالِ المسلمين حتى إنّ كثيراً من الفسقةِ وضعاف الإيمان من المسلمين مالوا إليهنَّ وجلسوا معهُنَّ، وربما قضوا منهنّ وطراً. فكان ذلك من أهمِّ عواملِ تسربِ الضعفِ والوهنِ إلى صفوفِ جيشِ المسلمين.

صدُّ هجومِ الفرنجِ

انقضى فصلُ الشتاءِ ببردِهِ وثلجِه، ودخلَ فصلُ الربيعِ بجوِهِ الجميلِ وطقسِهِ المعتدلِ، وذلك أنسبُ لطبيعة الإنسانِ العربي، وأحسنُ ملاءمةً له من فصلِ البردِ وفي هذه الفترة أقبل أمراءُ المسلمين وقادةُ الجيوشِ والملوكُ بخيولِها ورجالِها، وشجعانِها وفرسانِها، فانضموا إلى السلطانِ صلاحِ الدينِ ليشاركوه في صدِّ هجومِ الفرنجِ وكسرِ شوكتِهم، وتحطيم جمعِهم، فكثُرَتْ تحت إمرتِهِ الرجالُ، وارتفعَتْ لنصرة دينِ اللهِ الراياتُ، وتصاعدَتْ عباراتُ التكبيرِ والتهليلِ، فقويَتْ بذلك قلوبُ مَنْ ضَعُفَ من المسلمين، وارتفعَتْ معنوياتُهُم القتاليةُ، وازدادوا شوقاً لكسرِ شوكةِ عدوِهِم، والقضاءِ على غرورِهِ، وتحطيم غطرستِهِ.

وأمـــا الفـــرنجُ فقد انفتحَ لهمُ البحرُ، وأقبلَتْ مراكبُهُ وســـفُنُهُ تحملُ العَدَدَ والعُدَدَ من المقاتلين من كلِ جهةٍ ومكان تعصـــباً لصليبِهم ونصرةً لأصحابِهم، وكانوا قد عملُوا ثلاثةَ أبـــراجٍ من خشبٍ وحديد مغطاةً بجلودٍ مسقاة بالخلِّ لئلاّ يؤثرَ فيها عملُ النفط فلاَ تحترقَ، وكان كلُ برجٍ على ضخامتِه يسعُ خمســـمائةِ مقاتلٍ، وكانَتْ جميعُها أعلى من أبراجِ سورِ البلدِ،

وقـــد حملوهـــا عـــلى عجلات ضخمة وقوية بحيثُ يحركونها ويوجهونها كيف شاؤوا، وجعلوا على كُلِ برجٍ منها منجنيقاً كبيراً.

فـــلما رأى المسلمون تلك الأبراجَ وضخامتَها وما فيها من عتاد وجنود اغتموا منها، وأهمَّهم أمرُها، وخافوا على البلد ومَنْ فيهً من المسلمين أن يحصلَ لهم منها شرٌّ، أو يصيبَهم منها أذىً، وحصل لهم منها ضيقٌ شديدٌ.

فجعـــلَ السلطانُ صلاحُ الدّينِ رحمهُ الله تعالى ينظرُ في أمرِها، ويُعملُ فكرَهُ لإيجادِ فكرةٍ للتخلصِ منها، فاهتدى بعقلهِ الصائبِ، وفكرِهِ الثاقبِ إلى إحراقِها، ولكنْ ... كيف ...؟

أنّى له ذلك وعشراتُ الآلافِ من جنودِ الفرنجِ حولها تحميها وتحيطُ بها من كلِ جانبٍ ... ؟

فاســتدعى النفّاطين ووعدهم بالهدايا الثمينةِ، والأموالِ الجزيلةِ إنْ همْ أحرقوها.

فـــنهض من بينهم شابٌ ممتلئٌ قوةً وحيويةً، واندفاعاً وحماساً، فقال : أنا لها ، والتزم بإحراقِها.

وكـــان هذا الشابُ نحاساً من دمشقَ يُعرَفُ بعلي بنِ عـــريفِ النحاسين، فقال له صلاحُ الدين : وفقكَ الله وحماك،

ودفــع عنكَ كلَّ سوءٍ ومكروهٍ ، فأخذ الشابُ النفطَ الأبيضَ وخلطَــهُ بموادَّ معينة، وجعلها في ثلاثةِ قدورٍ من نحاسٍ، وأوقد تحتها ناراً حاميةً حتى وصلَتْ إلى درجةٍ عاليةٍ من الغليانِ حتى تأجَّجَــتْ وصارَتْ ناراً، فجعلَ يرمي تلك الأبراجَ، حتى رمى كــلَّ برجٍ منها بقدرٍ من تلك القدورِ بالمجانيقِ من داخل عكا، فاحترقَتِ الأبراجُ الثلاثةُ وتحولَتْ إلى نارٍ بإذنِ الله، ولها ألسنةً متصاعدةً في الجوِ أحرَقَتْ كلَّ ما حولها وجعلَتْهُ رماداً.

فَفَــرِحَ المسلمون بنصرِ الله، وصرخوا صرخةً واحدةً مكــبّرين مهلّلين حتى ارتفعَتْ أصواتُهم فعانقَتِ السماء، فلم يــبقَ في الأبراجِ جنديٌّ واحدٌ، فلقد تحولَتْ بما فيها إلى رماد، وكــان يوماً على الكافرين عسيراً، ولم يجدوا لهم من دون الله ولــياً ولا نصيراً، لقد أُسقطَ في أيديهم ، ﴿وظنّوا أنهم مانعتُهم حصــونُهم منَ اللهِ فأتاهُمُ اللهُ من حيثُ لم يحتسبوا وقذفَ في قلوبهمُ الرعبَ يُخربون بيوتَهم بأيديهِم وأيدي المؤمنين فاعتبِروا يا أُولي الأبصارِ.﴾[1] .

وذلــك في يومِ الاثنين الثاني والعشرين من ربيعِ الأولِ سنةَ ستٍ وثمانين وخمسمائة.

---

[1] الآية ٢ من سورة الحشر.

وكـــان الفـــرنجُ قد بذلوا لتلك الأبراجِ أموالاً كثيرةً، وأمضـــوا لإعدادها وقتاً طويلاً، استمرّ العملُ فيها سبعةَ أشهر عملاً متواصلاً، فاحترقَتْ جميعها في يومٍ واحدٍ، ﴿ وكفى اللهُ المؤمنين القتالَ وكان اللهُ قوياً عزيزاً﴾.[1]

﴿وقدمنا إلى ما عمِلوا من عملٍ فجعلناه هباءً منثوراً﴾[2] ﷻ .

لقـــد أرادَ صلاحُ الدينِ أن يبرَّ بوعدِهِ، فاستدعى ذلك الشابَ الدمشقيَّ الذكيَّ البطلَ، فعرض عليه المكافأةَ الماليةَ التي وعَدَ بها، فامتنَعَ أن يأخذَ منها درهماً واحداً، وقال : إنما عملتُ ذلـــك ابـــتغاءَ وجـــهِ اللهِ، ورجاءَ ما عندهُ سبحانهُ من الأجرِ والثوابِ، فلا أريدُ منكم جزاءً ولا شكوراً.

فهكذا فلْتكنِ الرجالُ ... !!

وهكذا فلْتكنِ الشجاعةُ ...!!

وهكـــذا يكونُ الصدقُ والإخلاصُ، وهكذا يكونُ البرُّ والوفاءُ، والولاءُ والإباءُ ...!!

إنَّ تاريخَـــنا الإســـلاميَّ العريقَ، وتراثَنا العربيَّ المجيدَ في فجـــرِهِما وضـــحاهما وظُهرهما ومَسَائهما حافلان بمثلِ هذه

---

[1] الآية ٢٥ من سورة الأحزاب.

[2] الآية ٢٣ من سورة الفرقان.

الصورِ المجيدةِ، والمواقفِ الشجاعةِ النبيلة، والتضحياتِ العظيمة، ولسوفَ تبقى عزةً في جبينِ التاريخِ تتناقلُها الأجيالُ جيلاً بعدَ جيلٍ.

وليسَتْ هذه البطولةُ هي الأولى فلقد سبقَتْها بطولاتٌ أعظمُ وأروعُ، وليسَتْ هي الأخيرةُ، فإنَّ الأمةَ التي أنجبَتْ مَنْ يقـــومُ بهذه البطولاتِ الفدائيةِ الرائعة قادرةٌ أنْ تنجبَ الكثيرين ... الكـــثيرين أمثالَهم ، وإنَّها حين تفعلُ ذلك لاتفعلُهُ إلاّ إذا كانت قويةً صحيحةً معافاةً، وأمتنا الإسلاميةُ صحيحةٌ معافاةٌ دائماً بفضلِ القرآنِ الكريمِ الذي يغذي أرواحَ أبنائها، ويُذكي فـــيهم روحَ الـــبذلِ والعطاءِ، والتضحيةِ والفداءِ، والإخلاصِ والإباءِ، ويجعلُهم يندفعون ليقدّموا أرواحَهم ودماءهم رخيصةً في سبيلِ اللهِ، وفي سبيلِ العقيدةِ العظيمةِ التي اعتنقوها وآمنو بها ... !!.

هلاكُ ملكِ ألمانيا

لقد تحقّق الناسُ من صحةِ النبأ القائلِ بأنَّ ملكَ ألمانيا قد أقبل بثلاثمائة ألفِ مقاتلٍ لاحتلالِ الشامِ وقتلِ أهلِه وتشريدِهم انتقاماً منهم بما فعلوه بأهلِ القُدْسِ، وانتصاراً لقومِه وبني جلدته مـــن الإفـــرنجِ الصليبيين، فلقد أقبل فعلاً بهذه الأعدادِ الهائلةِ

وأقسَمَ أن يحتلَّ الشامَ وجميعَ بلادَ المسلمين، وأنْ يأخذَها بلداً ... بلداً حتى يصلَ إلى مكة والمدينة.

فلمْ يستطعْ أن يحقّقَ هدفَهُ، ولمْ ينلْ مما أرادَ شيئاً، فإنَّ الله له بالمرصاد، يعلمُ قصدَهُ ونيتَهُ، ويعلمُ سرَّهُ وجهرَهُ، ويعلمُ مــا يكــتم في نفسه، وما يُخطّطُ لحربِ دينِ الله والصدِّ عن ســبيله، لقد دعَتْهُ نفسُهُ الأمّارةُ بالسوءِ وهواهُ الذي لعبَ به، وشيطانُهُ الذي قادهُ واستولى على عقله وقلبه، أنْ يعلنَ الحربَ عــلى الله تعالى، تماماً كما فعل فرعونُ من قبلُ حين قال : (يا هامــان ابنِ لي صرحاً لعلّي أبلغُ الأسبابَ. أسبابَ السماواتِ فأطلعَ إلى إلهِ موسى وإنّي لأظنُّهُ كاذباً)[1].

لقد دفعهُ غرورُهُ وجهلُهُ وغطرستُهُ أنْ يحاربَ الله ويصدَّ عــن ســبيله، ويسعى في الأرضِ الفسادَ (استكباراً في الأرضِ ومكرَ السيِّءِ ولايحيقُ المكرُ السيِّءُ إلاّ بأهله)[2]

﴿ ويمكرون ويمكرُ اللهُ واللهُ خيرُ الماكرين﴾ [3]

لقــد غضــبَ اللهُ عليه وعلى قومه، وأذاقَهُ وبالَ أمرهِ فأهلكهم قبل أنْ يصلوا إلى قصدِهم، ويحققوا هدفَهم.

---

[1] الآيتان ٣٦-٣٧ من سورة غافر.
[2] الآية ٤٣ من سورة فاطر .
[3] الآية ٣٠ من سورة الأنفال.

لقد سلّطَ اللهُ عليهمُ البردَ والجوعَ والخوفَ، فضلّوا الطريق، وهلكوا في المفاوزِ وضاعوا في البلاد، فكانوا يُتخطّفون فيها كمن تخطفُهُ الطيرُ، أو تهوي به الريحُ في مكان سحيقٍ، ويقادون كما يقادُ الحيوانُ التائهُ الذلولُ.

لقد رأى الملكُ وقومُهُ نهراً كبيراً سريعَ الجري، غزيرَ الماءِ، ففكر أن يسبحَ فيه ليجتاز بهم إلى الضفة الأخرى فلما أصبح فيه حمله الماءُ إلى شجرةٍ اصطدم بها فشجَّتْ رأسَهُ، وأخمدَتْ أنفاسَهُ، وأخرجَتْ معها روحَهُ وأراحَ اللهُ من شرِهِ العبادَ والبلادَ.

فتولّى الأمرَ من بعدِهِ ولدُهُ الذي لم يكنْ أقلَّ منه سفاهةً وبشاعةً وشراً وفساداً.

ولكنهم تفرقوا في البلاد، ومُزِّقوا شرَّ ممزَّقٍ، وقلَّ عددُهم، (وضُرِبَتْ عليهمُ الذلّةُ والمسكنةُ وباؤوا بغضبٍ من اللهِ)[1] (ملعونين أينما ثُقِفوا أُخِذوا وقُتِّلوا تقتيلاً)[2]

---

[1] الآية ٦١ من سورة البقرة.

[2] الآية ٦١ من سورة الأحزاب.

فكانوا لا يجتازون بلداً، ولا يمرون بقومٍ إلاّ قتلوا منهم، فلما وصلوا إلى قومِهِم بعكا لم يكنْ عددُهم يزيدُ عن ألفِ فارسٍ من أصلِ ثلاثمائة ألف ...!! ﴿ذلك بما قدمَتْ أيديكم وأنَّ اللهَ ليس بظلاَّمٍ للعبيدِ﴾[1]

فلم يكترثْ بهم قومُهم، ولم يرفعوا بهم رأساً، ولم تكنْ لهم عندهم قيمةٌ ولا وزنٌ ولا عند أحد من أهلِ ملتِهم ودينِهم، وذلك جزاءُ الكافرين، وهذا عقابُ مَنْ حاربَ اللهَ ورسولَهُ، وأراد أن يطفئَ نورَ اللهِ، ويعتدي على حرماتِهِ، ويصُدَّ عن سبيلِهِ، ويذلَّ أولياءَهُ ودينَهُ.

وهناكَ روايةٌ أخرى تقولُ : إنَّ عددَ الذين وصلُوا منهم كان خمسةَ آلافِ فارسٍ ، ومهما يكنْ من أمرٍ فإنَّ الفارقَ كبيرٌ، وإنَّ من هَلكَ منهمْ في الطَّريق كثيرٌ من أصلِ ثلاثمائةِ ألفٍ ...!! واللهُ أعلمُ.

(ومكروا مكراً ومكرنا مكراً وهم لا يشعرونَ. فانظرْ كيف كان عاقبةُ مكرِهم أنّا دمّرناهم وقومهم أجمعين)[2] ﷻ .

---

[1] الآية ٥١ من سورة الأنفال.

[2] الآيتان ٥٠-٥١ من سورة النمل.

موقفُ ملوكِ الإفرنجِ
من جند الألمان

وصـــلَ جنودُ ملكِ الألمانِ إلى عكا فلم يحفلْ بهم ملوكُ الإفـــرنجِ بـــلِ احـــتقروهم وظهَرَتْ على وجوهِهم علاماتُ الاستياءِ والتأففِ خشيةً من سطوتِهم، وخوفاً من زوالِ دولتِهم على أيديهم لقوتِهم ومنعتِهِم، وشراستهِم وسوءِ أخلاقِهم.

ولْم يفـــرحْ بقدومِهِم إلاّ المركيزُ صاحبُ صورٍ، وهو الـــذي أنشأ فتنةَ عكا، وأوقد نارَها، فلقد كان ماكراً وداهيةَ حرب، وخبيراً بأمور الحروبِ والتخطيطِ للمعاركِ، وهو الذي أنشـــأ أنواعاً مختلفةً من آلاتِ الحربِ والحصارِ لم تخطرْ لأحد بـــبال، ونصبَ دباباتِ كالجبال تُحمَلُ على عجلاتِ ضخمة، تُوجَّـــهُ حســـب الحاجة، ولها سواعدُ قويةٌ من حديدٍ تضربُ السورَ فتخرقُهُ، وتثلِمُ جوانبَهُ فمنَّ اللهُ تعالى على عبادِه المؤمنين بإحـــراقِها، وأراحهم من خطرِها، فلهُ الحمدُ والمنةُ، وهو الذي إذا أراد شيئاً أن يقولَ لهُ كنْ فيكون.

استئنافُ القتالِ

رغـــمَ اســـتياءِ ملوكِ الإفرنجِ وتأففِهِم من قدومِ جندِ الألمان تولّى ملكُهم أمرَ قيادةِ الفرنجِ جميعاً، فنهض بهم وصادم

جـيشَ المسـلمين، وهـو يعتقدُ أنه سوف يوقعُ الرعبَ في صفوفِهم ويوهنُ قواهم إذا ما صادقهم وانقضَّ عليهم، ولكن خـاب فألُـهُ، وخانـهُ تفكيرُهُ وأوردَه وجيشَهُ موردَ الهلاكِ والعَطَـب، فلقد لقَيتْهُ جنودُ المسلمين، وصمدوا أمامَهُ صموداً مشـرفاً، وواجهوهُ مواجهةَ الأبطالِ الشجعانِ الذين لا يهابونَ الموتَ ويستعذبون الردَى، كما هم يهابون الموتَ، ويحرصون على الحياة.

لقد واجهَ قوماً أشداءَ صدّوا هجومَهُ، وأبطلوا مخطَّطَهُ، وتغلـبوا على أصحابه، وقتلوا منهم عدداً كبيراً، وجمعاً غفيراً، وردّوهـم على أعقابِهم خاسرين، فهذا الملكُ العادلُ أبو بكرِ، وكان رأسَ الميمنةِ يبصرُ فرقةً من جنود الفرنجِ يهجمون على مخـيمِ صلاحِ الدينِ وهو ينظرُ إليهم، فأمهلهم حتى توغلوا بين الخيامِ، فانطلق إليهم بجنوده الشجعان، ثم حمل عليهم بالسيوف والـرماحِ، فأنزلَ في صفوفِهمُ الموتَ الزؤامَ، وأذاقَهم مُرَّ الذلِّ والهوانِ برأسِ الرمحِ وحدِّ الحسامِ، فهربوا بين يديه كالقطعان الشاردةَ، وهو يتبعُهم ويُعملُ سيفَهُ، ومازالَ يقتلُ منهم جماعةً بعد جماعة، وفرقةً بعد فرقةٍ حتى كسَوا وجهَ الأرضِ بدمائهم، وغطّوها بجثثهم، وأقلُّ ما قيل في ذلك : إنه قتل منهم في ساعةٍ واحدةٍ خمسةَ آلافِ مقاتلٍ .

وهناك روايةٌ عنِ ابنِ العمادِ تقولُ : إنه قتل منهم فيما بين الظهرِ والعصرِ عشرةَ آلافٍ ... واللهُ أعلم.

هـــذا ما قام به أفرادُ ميمنةِ جيش المسلمين، في الوقت الذي لم يشعرْ طرفُ الميسرة بما جرى، ولم يعلمْ أحدٌ منهم بما حصَلَ ...!!

وكـــان الذيـــن فعلوا ذلك لم يبلغوا ألفاً من المسلمين الذين لم يُقتلْ منهم سوى عشرةِ مقاتلين أو أقلّ، مع أنها كانت وقعةً عظيمةً أوهنَتْ جيشَ الفرنجِ وأضعَفَتْ قواهم، وجعلتهم يتفرقون في أطرافِ الأرض، حتى كاد أمراؤهم يطلبون الصلحَ لينصـــرفوا مـــن حيثُ أتوا، فاتفق قدومُ مددٍ عظيمٍ إليهم من الـــبحرِ مزوّدٍ بمؤنٍ وذخائرَ كثيرةٍ، فانضموا إلى جيشِ الفرنجِ الذين جدّدوا نشاطَهم، واستعادوا حيويتَهم، وسَرَتِ الآمالُ إلى نفوسِهم فعدلوا عن طلبِ الصلحِ واستأنفوا القتالَ، ونصبوا إلى جانبِ السورِ منجنيقين أحرقهما المسلمون قبل استعْمالِهِما.

وجـــاءَتْ كتبُ صاحب القسطنطينية يعتذرُ للسلطان صـــلاحِ الدين من جهة ملك الألمان عنِ مروره ببلاده، وأنه لَمَ يدخلْ بلادَهُ باختيارِه، إنّما تجاوَزها رَغماً عنه وبكثرةِ الجند.

وقـــال له : ولكـــنْ ليستبشـــرِ السلطانُ خيراً بأَنّ اللهَ ســـيُهلِكَهُم في الطريقِ، وفي جميعِ البلدانِ، وقد وقع كما قال،

وحـــدث كما تحدّثَ فقُطِعَ دابرُ القوم الذين ظلموا والحمد لله ربّ العالمين.

معركةُ البحرِ

كتـــب والي عكا وهو بهاءُ الدينِ قراقوش وهو محصورٌ داخـــلَ البلدِ، كتب إلى صلاحِ الدينِ يشكو إليه الحالةَ المتردية ومـــا وصل إليه المسلمون من نقصٍ في الموادِ الغذائيةِ من جراءِ الحصـــارِ، وذلـــك في العشرِ الأولِ من شهرَ شعبانٍ سنة ستٍ وثمـــانين وخمسمائة، وأنه لم يبقَ في المدينةِ من الأقواتِ إلاّ ماً يكفيهم إلى ليلةَ النَصَفِ من شعبانَ فقط.

فـــلما وصـــلَ الكتابُ إلى صلاحِ الدينِ كتَمَ ما فيه، وأســـرّها يوسفُ في نفسهِ ولم يبدها لهم خوفاً من إشاعةِ ذلك فـــيطمعُ العـــدو ويقـــوَى عليهم، وتضعُفُ قلوبُ المسلمين، ويسري إليها الوهنُ، وتدبُ فيهمُ الفوضى.

وكـــان صـــلاحُ الدينِ قد كتب إلى أميرِ الأسطولِ في الديارِ المصريةِ أن يأتيَ بالميرة إلى عكا بأسرعِ وقتٍ، فتأخّرَ مجيئهُ بسببِ الظروفِ الحرجة في البحرِ، وانتشارِ قطع أسطولِ الفرنجِ في الشواطئِ الشامية. وفي ليلة النصف من شعبانَ وصلَتْ ثلاثة مراكـــبَ محملةً بالميرةِ والموادِّ الغذائيةِ ما يكفي أهلَ عكا طيلة فصل الشتاء.

فلما أشرفَتْ على البلدِ نهض إليها أسطولُ الفرنجِ ليمنعها من دخولِ عكا، وإتلافَ ما فيها، فدارَتْ بينهم في البحرِ معركةٌ قويةٌ، واقتتلوا قتالاً شديداً، والفصلُ شتاء، والطقسُ باردٌ، والمسلمون في البرّ يبتهلون إلى الله ﷻ بالدعاء لتعبر مراكبِ المسلمين وسلامة ما فيها.

والفرنجُ يصرخون في البرّ والبحرِ، وقد ارتفع ضجيجُ الفريقين كلٌّ يشجعُ جيشَهُ ويدعو له بالسلامةِ والنصرِ، فأجابَ الله دعاءَ المسلمين فنصرَهم، وسلَمَتْ مراكبُهم، (والذين كفروا فتعساً لهم وأضلّ أعمالَهم)[1] ولم يُجبْ دعاءَهم، لأنه (وما دعاءُ الكافرينَ إلاّ في ضلال)[2] بل وأرسلَ عليهمْ ريحاً عاتيةً في ليلة شاتية باردة أحرقَتْ مراكبَهم المحيطةَ بالميناء، وسلمتْ مراكبُ المسلمين ودخلوا بميرتهم، وفرح بهم أهلُها فرحاً شديداً . وكان السلطانُ صلاحُ الدينِ رحمهُ اللهُ تعالى قد جهزَ مركباً عظيماً كان قد استولى عليها من الفرنجِ، فحمّلها من ميناء بيروتَ بمختلفِ المواد الغذائيةِ من لحمٍ وجبنٍ ودقيقٍ وأسلحةٍ وسهامٍ ونفطٍ كثيرٍ، ووجّهها إلى مدينة عكا، وأمرَ مَنْ فيها أنْ يرتدوا لباسَ الفرنجِ، ويشدُّوا عليهم الزنانيرَ ويحلقوا لحاهم،

---

[1] الآية ٨ من سورة محمد.

[2] الآية ١٤ من سورة الرعد.

ويصطحبوا معهم عليها الخنازيرَ كيلا يثيروا أيّ شبهةٍ للفرنجِ إذا ما مرّوا بهم.

فانطلقوا في عرضِ البحرِ، فلما قدموا على مراكبِ الفرنجِ اعتقدوا أنهم منهم، هذا ... وكانتِ المركبةُ تجري بهم بسرعة مذهلة كأنها السهمُ إذا خرج من كبدِ القوسِ، ومازالَتْ كذلك حتّى دخلَتْ ميناءَ عكا، وأُفرِغَ ما فيها من مؤن امتلأ الثغرُ بها بحيراً، كفاهم إلى أنْ قدمَتْ عليهمُ المراكبُ المَصريةُ المتقدمةُ الذكرِ، والحربُ خُدعةٌ.

كانَتْ مدينةُ عكا محاطةً ببرجينِ عظيمين يُقالُ لأحدهما برجُ الديان، فوجَّه إليه الفرنجُ مركبةً عظيمةً لها عدةُ سواعدَ قويةٍ، ومحركاتٌ ضخمةٌ يستعملونها كما يريدون، ويوجّهونها كما يشاؤون، إذا وجّهوا ساعداً منها على شيءٍ من الأسوارِ أو الأبراجِ صدَّعَهُ وقَلَبهُ وجعلَهُ ركاماً، ووصلوا بعد ذلك إلى ما أرادوا.

فعظُمَ أمرُها على المسلمين، واغتمّوا منها غمّاً شديداً، وحسبوا للتخلصِ منها ألفَ حساب.

ولم يزالوا من أمْرِها في حيرةٍ حتى أرسلَ اللهُ عليها شُواظاً من نارٍ فأحرقها وأغرقها.

وكانَ الفرنجُ قد أعدوا فيها نفطاً كثيراً، وحطباً جزلاً، وأخرى خلفها فيها حطبٌ محضٌ، فلما أراد المسلمون أن

يستولوا على الميناء ليعززوا موقفَهم أرسلوا النفطَ على مركبةِ الحطبِ فاحترقتْ، ثم أمدَّ اللهُ تعالى عبادَهُ المؤمنين بسلاحٍ خفيٍ مــن عــنده، ولكنه سلاحٌ فعّالٌ وفتّاكٌ، لقد أرسل اللهُ ريحاً شديدةً لعبَتْ بالنيران في المركبةِ المحترقةِ وهي سائرةٌ فارتطَمَتْ بالمركــبة الأخرى فاحترقَتْ أيضاً، وهي التي أعدّوا فيها النفطَ والحطــبَ، وكــانوا قد أعدّوا مركبةً ثالثةً فيها عددٌ كبيرٌ من المقــاتلين، فــلما أرسلوا النفطَ على برج الديان انعكسَ الأمرُ علــيهم بقــدرةِ اللهِ تعالى، هذا ... والريحُ تعملُ عملها في المركــبة الأولى، فما تعدّتْها حتى احترقَتْ، وانتقل الحريقُ بفعل الريحِ إلى الأخرى فغرقَتْ، وانتشر إلى مركبةِ المقاتلين فتلفَتْ، وتحطّمَتْ، وهلك مَنْ فيها، وانقلب السحرُ على الساحرِ، وردَّ اللهُ ســهامهَم إلى نحورهِم، وجعلهم يموتون بغيظِهِم، وأشبهوا مَــنْ سَــلَفَ من الكافرين، في قوله تعالى : (يُخربون بيوتَهم بأيديهم وأيدي المؤمنين فاعتبروا يا أولي الأبصارِ)[1] وفي قوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمةَ اللهِ عليكم إذ جاءتكم جــنودٌ فأرســلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها وكان اللهُ بما تعملون بصيراً)[2] ﷺ.

---

[1] الآية ٢ من سورة الحشر.
[2] الآية ٩ من سورة الأحزاب .

تبادلُ الكتبِ بين صلاحِ الدينِ والقاضي الفاضلِ وبعضِ الملوكِ والسلاطينِ

أولاً – كتاب القاضي الفاضل :

لقـــد أقلـــق المسلمين في جميعِ الأمصارِ حصارُ الفرنجِ لمديـــنةِ عكا، وأشغَلَهم بالليل والنهارِ طولُ مدةِ هذا الحصارِ، فكتـــبَ القاضي الفاضلُ وهو بمصرَ يديرُ شؤونَها، وينوبُ عنِ الســـلطان في حكمِها، ويجهزُ له ما يحتاجُ إليهِ من مؤنٍ حربيةٍ، وموادَّ غذائية، ومقاتلين إنِ احتاجَ الأمرَ.

ولقدْ علّلَ القاضي الفاضلُ طولَ مدة الحصارِ يعودُ إلى كثرةِ الذنوبِ والمعاصي والبعد عن طاعة الله تعالى، وارتكاب المحـــارمِ بين الناسِ ، ذلك أنَّ العبدَ لا ينالُ ما عندَ الله تعالى إلاّ بطاعته، ولاتفرجُ الكروبُ والشدائدُ إلاّ بالرجوع إليهِ، وامتثالِ أمرِه، فكيفَ لا يطولُ الحصارُ والمعاصي في كلِ مكانٍ فاشيةٌ، وقدْ صعدَ إلى الله منها ما يُتوقّعُ بعده الاستعاذةُ منه.

وفـــيه أنـــه قـــد بلَغَهُ أنَّ بيتَ المقدسِ قد ظهر فيه من المـــنكراتِ والفواحـــشِ والظلمِ في بلادِهِ ما لا يمكنُ تلافيهِ إلاّ بكلفةٍ كثيرةٍ.

كتابُ آخرُ من القاضي الفاضل

وأرســـلَ إليه كتاباً آخرَ يقولُ فيه : (إنّما أُتينا من قِبَلِ أنفسنا، ولو صدقْنا لعَجّلَ اللهُ لنا عواقبَ صدقنا، ولو أطعناه لما عاقَبَــنا بعدوِنا، ولو فعلنا ما نقدرُ عليه من أَمرِهِ لفَعَلَ لنا ما لا نقدرُ عليه إلاّ بهِ.

فلا يختصمْ أحدٌ إلاّ نفسَهُ وعَمَلَهُ، ولا يرجُ إلاّ ربَهُ، ولا يغترُّ بكثرةِ العساكرِ والأعوانِ، ولا فلانِ الذي يعتمدُ عليه أن يقاتلَ ولا فلانِ، فكلُّ هذه مشاغلُ عنِ اللهِ ليس النصرُ بها، إنما النصــرُ مـــن عندِ اللهِ. ولا تأمَنُ أن يَكِلنا اللهُ إليها، والنصرُ به واللطــفُ منه، ونَستغفرُ اللهَ من ذنوبنا، فلولا أنها تسدُّ طريقَ دعائنا لكان جوابُ دعائنا قد نزل، وفيضُ دموعِ الخاشعين قد غَسَلَ، ولكنْ في الطريق عائق.

كتابُ آخرُ من القاضي الفاضل

ومن كتابٍ آخَر يتألَمُ فيه لما عند السلطانِ من الضعفِ في جســمه بسببِ ما حُمّلَ على قلبهِ مما هو فيه من الشدائد، أثابــهُ الله بقولــه : ومــا في نفسِ المملوك شائنةٌ إلاّ بقيةُ هذا الضــعفِ الذي في جسمِ مولانا، فإنه بقلوبنا، ونفديهِ بأسماعِنا وأبصارِنا.

ثم قال :

بنا معشرَ الخدامِ مابكَ من أذى وإنْ أشفقوا مما أقولُ فبي وحدي

انتهى.

فرحمَ اللهُ هذا القاضيَ الفاضلَ الناصحَ ما أفصَحَهُ ... !! ومن واعظٍ ما أنصَحَهُ ...!!! ومِنْ عقلٍ ما أرجَحَهُ ...!!

ثانــياً – كتاب من صلاح الدين إلى يعقوبَ بنِ يوسفَ بنِ عبدِ المؤمنِ (ملكِ الأندلسِ وسلطانِ جيشِ الموحدين)

كتب السلطانُ صلاحُ الدينِ رحمه اللهُ تعالى إلى يعقوبَ ابــنِ يوســفَ ملكِ الأندلسِ يستنجدُهُ في إرسالِ مراكبَ في الـبحرِ تكونُ عوناً للمسلمين على مراكبِ الفرنجِ، ويستحثّهُ علــيهم أثناء قتالهِ معهم حول عكا، وبعث مع الكتاب هدايا

ثميـــنةً، وتحفاً سنيةً مع أبي الحزمِ عبدِ الرحمنِ بنِ منقذ، ذلك أن ملـــكَ الأندلسِ الذي كان يلقّبُ بالمنصورِ قدِ ارتفَعَتْ شهرتُهُ ارتفاعـــاً هـــائلاً إثرَ انتصارِهِ الساحقِ على الإسبانِ في معركة الأركِ المشـــهورةِ، وكان صلاحُ الدين آنذاك يقاسي الأمرّين والشدائدَ في حربِ الفرنجِ الذين جاؤوا إلى بلادِ الشامِ بأعدادِ غفـــيرةٍ وقوىً هائلةٍ لاستعادةِ بيتِ المقدسِ من المسلمين كما تقدم.

وفي حصارِ عكا الطويلِ حيث جاءَت الجنودُ الصليبيةُ من مختلفِ أنحاء أوربا لتساندَ الفرنجَ المتقاتلين مع صلاحِ الدينِ الـــذي احـــتاجَ إلى المددِ من الرجالِ والمالِ والسلاحِ والعتادَ والمـــيرةِ، وبشكلٍ خاصٍ القطعُ البحريةُ ليستعينَ بها على قطعِ طـــريقِ تموينِ الجيوشِ الصليبية، وإمداداتها العسكرية فلجأ إلى ملكِ الموحدينَ في الأندلسِ يستنجدُهُ ويطلبُ منه المددَ والعونَ ولقدَ أوضح له في كتابه أنهُ كاتَبَهُ لأمرين :
الأولُ، شوقٌ قديمٌ، والثاني مرامٌ عظيمٌ، ثم سَرَدَ له ما حدث في بـــلادِ الشامِ منِ استردادِ بيتِ المقدسِ من الصليبيين، وزحفِهم من بلاد الغربِ لاسترجاعه.

ووصفَ له المعاركَ القويةَ التي خاضها معهم، وذكر قلةَ المـــواردِ الـــتي يعانيها في حصارِ عكا، ثم قال له : (ولمّا كان

حضـــرةُ سلطانِ الإسلامِ، وقائدِ المجاهدين إلى دارِ السلامِ أولى مَـــنْ توجَّـــه إليه الإسلامُ بشكواهُ وبثّه واستعانَ به على حمايةِ نســـله وحـــرثه، كان المتوقَّعُ من تلكَ الدولة العالية، والفرقةَ الفاديَـــة، أن يمدَّ غربَ الإسلامِ بأكثرَ ممّا أمدَّ به غربُ الكفارِ الكافرينَ، فيملأُها عليهم جواريَ كالأعلامِ، ومدناً في اللججِ سوائرَ كأنها الليالي ...!!

وكـــان عنوانُ الكتابِ، كالتالي ... من الفقيرِ إلى اللهِ تعالى يوسفَ بنِ أيوبَ إلى أميرِ المسلمين.

الحمــدُ للهِ الذي استعملَ على الملةِ الحنيفةِ منِ استعمر الأرضَ، وأغنى من أهلِها مَنْ سألهُ القرضَ، وأجزى مَنْ أجرى على يدهِ النافلةَ والفرضَ، وزيّنَ سماءَ الملةِ بدَراري الذراري التي بعضُها من بعضٍ ... وهو كتابٌ طويلٌ .

ثم ختمهُ وأرسلهُ مع عبدِ الرحمنِ بنِ منقذِ المذكورِ الذي دخلَ على المنصورِ وسلَّمَ عليه، ومدَحَهُ بقصيدةٍ قال فيها :

سأشكرُ بحراً ذا عُبابٍ قطعتُهُ ... إلى بحرِ جودٍ ما لأخراهُ ساحلُ

إلى معدنِ التقوى إلى كعبةِ الندى ... إلى مَنْ سَمَتْ بالذِكْرِ منه الأوائلُ

إليكَ أميرَ المؤمنين ولم تَزَلْ ... إلى بابكَ المأمولِ تُزجى الرواحلُ

قطعتُ إليكَ البرّ والبحرَ موقناً ... بأنّ نداكَ الغمرَ بالنجحِ كافلُ

وحُزتُ بقصديكَ العُلا فبلغتُها ... وأدنى عطاياكَ العُلا والفواضلُ

فلازلتَ للعلياءِ والجودِ بانياً ... تبلّغكَ الآمالُ ما أنتَ آملُ

وهي قصيدةٌ عدتُها أربعون بيتاً، فأعطاه بكلِّ بيتٍ ألفَ دينارٍ، أو ألفَ درهمٍ ..؟ وقال له : إنما أعطيناكَ لفضلكَ ولبيتكَ.

ومن المؤسف أن طلبَ صلاحِ الدينِ، واستغاثتَهُ لم تجدْ أذناً مصغيةً ولم تلقَ قَبولاً لدى الخليفةِ الموحدي، بل إنه لم يجدْ صلاحَ الدينِ أهلاً حتى لأن يردَّ عليه التحيةَ بتحيةٍ مثلِها، وكان موقفُهُ هذا خالياً من اللباقةِ السياسيةِ أو الأخوةِ الإسلاميةِ.

ذلك أنه اعتبر نفسَهُ أفضَلَ من صلاحِ الدينِ وأكبَرَ من أن يردَّ عليه، لأنه كما يروى أنه غضب من كتابِ صلاحِ الدّينِ إذْ لم يخاطبْهُ بلقبِ أميرِ المؤمنينَ ...!!

وكان القاضي الفاضلُ قد أشار على صلاحِ الدينِ من قبلُ أن لا يُراسِلَهُ ولكن وقع ما وقع بمشيئةِ اللهِ تعالى.

والذي يبدو والله أعلمُ أنّ صلاحَ الدينِ رحمهُ اللهُ تعالى والمســـلمين في المشرقِ قد غالَوا في قوةِ الموحدين، وأعطَوهم أكـــثرَ مما يستحقون، وذلك بانتصارهمُ الساحقِ والسريعِ على الإسبانِ في معركةِ الأركِ العظيمة، ولكنَّ تلك المعركةَ لم تكن حاسمـــةً، ولم تمنعِ الزحفَ الإسبانيَّ المسيحي، أو توقفَ حركةَ الاســـتردادِ الإسبانيةَ فترةً طويلةً، ذلك أنه لم تمضِ على وفاةِ المنصـــورِ إلاّ فترةٌ بسيطةٌ حتى نشبتْ معركةُ العقابِ المشؤومة والتي خسرها الموحدون، وكانت فاتحة ضياعِ حواضرِ الأندلسِ الكبرى كقرطبةَ وإشبيليةَ وغيرِهما ...!!

انتهى من كتاب الوثائقِ السياسيةِ والعسكريةِ ... بتصرفٍ.

سؤالٌ وجوابٌ

يبدو أن المنصورَ كان بحاجةٍ ملحةٍ إلى أساطيلِه لحمايةِ شـــواطئِه، وردِّ عدوانِ الإسبانِ والبرتغاليين، وصدِّ هجماتِهِمُ الكثيرةُ والمتكررةِ، وهي بمجموعها أسبابٌ معقولةٌ لعدمِ إرسالِهِ المساعدةَ إلى صلاحِ الدينِ.

أمـــا أسلوبُهُ بعدمِ ردِّ التحيةِ أصلاً، أو عدمِ ردِّ الجوابِ بالكليةِ فهو أسلوبٌ غيرُ لائقٍ منه كسلطان.

وأعـــتقدُ أن المنصـــورَ لـــه وجهةُ نظرٍ أخرى في عدم مساعدةِ صلاحِ الدينِ ودعمِهِ بالمالِ والعتادِ والرجالِ، ليس من بابِ الدفاعِ عنهُ، ولكن بالنظرِ والتأمُّلِ في عقيدتِهِ وقناعتِهِ.

ذلـــك أن أهـــلَ المغـــربِ كانوا يتهمون أهلَ المشرقِ بالانحرافِ عنِ العقيدةِ الإسلاميةِ الصحيحةِ، ويتهمونهم بالبدعِ والضـــلالِ والانحـــرافِ والزيغِ، ولقد رويَ أن المنصورَ ذكرَ لـــلموحّدينَ رغبـــتَهُ بالرحلةِ إلى المشرقِ، وجعل يذكرُ البلادَ المصريةَ وما فيها من البدعِ والضلالاتِ، ويقولُ لهم : نحنُ إنْ شاءَ اللهُ مطهِّروها و لم يزلْ هذا عزمَهُ حتى مات .[1]

وذكـــر ابنُ خلّكانَ أن المنصورَ استاءَ من صلاحِ الدينِ لأنهُ لم يخاطبْهُ بأميرِ المؤمنين، فعزَّ عليه ذلك و لم يجبْهُ.[2]

يقـــولُ الدكتور محمد ماهر حمادة : (ونحن وإن كنا لانعـــتقدُ أنّ المنصـــورَ الموحديَّ لم ينجدْ صلاحَ الدينِ بسببِ ذلك، ولكنا نعتقدُ أنه لم يرسلْ له رسالةً جوابيةً و لم يردَّ على

---

(1) الوثائق السياسية والعسكرية.

(2) وفيات الأعيان جـ٦ ص ١٢.

التحيةِ بمثلِها لعدةِ أسبابٍ، أولُها : الغرورُ الذي أصابَ المنصورَ بعد معركةِ الأركِ، فجعل ينظرُ لنفسِهِ بمنظارٍ أعلى ممّا هي عليه. ثانـيها : أنـه كان يعتقدُ أنّ مسلمي المشرقِ الإسلامي ليسوا أسوياءَ في عقيدتِهم وإسلامِهم وأنّ واجبَهُ، وبالتالي واجبَ كلِ مسلمٍ حقيقي احتلالُ بلادِهم وتطهيرُها من الملاحدةِ والبدعِ، وحملُ الكافةِ على القاعدةِ الشرعيةِ.

وأخيراً لأنّ صلاحَ الدين لَم يلقبْهُ بأميرِ المؤمنين.

ويتابع قائلاً : وعندنا وثيقةٌ من نفسِ العصرِ هي رسالةٌ أرسلها القاضي الفاضلُ إلى صلاحِ الدينِ حولَ نفسِ الموضوعِ موضـوعِ تلقيـبِ صلاحِ الدينِ المنصورَ الموحدي بلقبِ أميرِ المؤمنين.

ويبدو لنا أنه ثار جدلٌ عنيفٌ حول هذا الموضوع بين أتـباعِ صـلاحِ الدينِ وأن صلاحَ الدينِ مالَ إلى هذا الرأي، ولكن لم يقفْ بوجهِ هذا الاتجاه إلاّ القاضي الفاضلُ في رسالةٍ وجّهَهـا إلى صلاحِ الدينِ حولَ هذا الموضوعِ ، فهو يذكرُ في رسـالتِه أنه غيرُ معترضٍ على الرسالةِ المغربيةِ، ولكن اعتراضُهُ على إضَافةِ لفظِ أميرِ المؤمنين.

ويُذكرُ أنه خاطبَ المنصورَ بشكلٍ فخمٍ كلِ الفخامة، وبشكلٍ يفوقُ الوصفَ، وبما لا يمكنُ مخاطبةُ مخلوقٍ بأكثرَ منه.

وعـــلى الرغم من أنّ الأميرَ نجمَ الدينِ وهو الذي كان مـــن المفروض أنْ يحملَ الرسالةَ إلى المغربِ، اعترض على عدمِ تلقيبِ المنصورِ بأميرِ المؤمنين، واعترضَ معه آخرون من بينهمُ العادلُ أخو صلاحُ الدينِ إذ أصرّوا على ذلك.

ويـــتابعُ القاضي الفاضلُ اعتراضاتهِ الثانويةَ، ويشكُّ في إمكانيةِ وصولِ أيةِ نجدةٌ قبل سنتين، وفي خلالِ ذلك يبدلُ اللهُ الأحوالَ ويقولُ : إذا أصرَّ صلاحُ الدينِ على تلك اللفظةِ فهو يستقيلُ من كتابتِها، ويطلبُ إلى السلطان أن يكلفَ غيرَهُ من الكُـــتّابِ كتابتِها، وفي نفسِ الوقتِ يلوذُ بالسلطان ألاّ يسمحَ لمخالفي رأيِهِ أنْ ينتقموا منه لأنهُ خالفَهم.

الخاتمة

أقبلَ فصلُ الشتاء وحصارُ الفرنجِ مضروبٌ حولَ مدينة عكـــا، فلما اشتدَّ البردُ انشَمَرَتْ مراكبُهم عنِ البلدِ خوفاً من الهلاك بسببِ اغتلامِ[1] البحرِ، فسأل المسلمون صلاحَ الدينِ أن يـــريحَهم مما هم فيه من الحصارِ الطويلِ، والقتالِ المستمرِ ليلاً ونهـــاراً، وأن يـــبدلَ بهم جيشاً بجيشٍ آخرَ، وكانوا قريباً من عشـــرين ألفـــاً من المقاتلين، فرقَّ لهم، وعَزَمَ على استبدالهم، وكان قصدُهُ خيراً، ولكنْ من يدري ...؟ إن الغيبَ لا يعلَمُهُ إلاّ اللهُ، ولربما كان ذلك الرأيُ غيرَ صائبٍ، فإنَّ هؤلاء المقاتلين لهم خبرةٌ طويلةٌ بالبلدِ، وتمرسٌ على القتالِ، واطلاعٌ على طريقةِ العدوِ من كرٍ وفرٍ، وهجومٍ وانسحابٍ، كما أنهُ أصبحَ لديهم من المؤنِ والموادِ الغذائيةِ ما يكفيهم لسنةٍ كاملة، فليس ثمةَ مبررٌ لذهابِهم ومجيءِ غيرِهم.

ولقـــد صدف أنْ جاءتهم مراكبُ من مصرَ تحملُ مؤناً كثيرةً وميرةً تكفيهم سنةً أخرى، فقدّر الله ﷻ، وله الأمرُ من قـــبلُ ومـــن بعدُ، أنها لما توسطت البحرَ، واقتربَتْ من الميناء هاجَـــتْ عليها ريحٌ شديدةٌ فاضطرَبَتْ وتصادمَتْ فتكسَّرَتْ وغرقتْ، وغَرِقَ مَا كان فيها مِنَ الميرةِ والجنودِ والبحارةِ فحزنَ

---

[1] اغتلم البحر : هاج ، واغتلامه : هيجانه.

المســـلمونَ لذلكَ حُزْناً شديداً، واغتمّوا منه غمّاً كبيراً، واشتدَّ الأمـــرُ ضيقاً وحرجاً، وتسرَّبَ إلى بعضِهِمُ الضعفُ والوهنُ، وأُصـــيبوا باليأسِ والقنوطِ، وتفاقم الخطبُ، ومرضَ السلطانُ صـــلاحُ الدينِ مرضاً شديداً أتعَبَهُ، وأقعَدَهُ عنِ القتالِ، وكان ذلك لصالحِ الصليبيين مائةً بالمائة، ولكنْ قدّر اللهُ وما شاء فعل، ليقضيَ اللهُ أمراً كان مفعولاً، وإنّا لله وإنا إليه راجعون.

والذي زاد الأمرَ تعقيداً، وأضافَ همّاً إلى هم أنْ حدثَ وســقطَتْ ثُلمةٌ عظيمةٌ من سورِ عكا، وفي الظروفِ الصعبةِ والقاســيةِ التي تمرُّ بالمسلمين ويعانون منها المصائبَ والشدائدَ، فاغتنم الفرنجُ هذه الفرصةَ، وحاولوا أن يدخلوا عكا من تلك الثُـــلمةِ، فتصـــدّى لهُم المسلمون وسدّوها بصدورهم، وقاتلوا دونهَـــا بـــنحورهم، ومـــازالوا يدافعون عنها لمنعِ الفرنجِ منِ اختراقها حتى صَدِّوهم عنها، فكان منهم مَنْ يُقاتلُ ومنهم من يساهمُ في البناءِ حتى أعادوا بناءَها على أشدِّ مما كانَتْ وأقوى وأمنعَ، والحمدُ لله ربِّ العالمين .

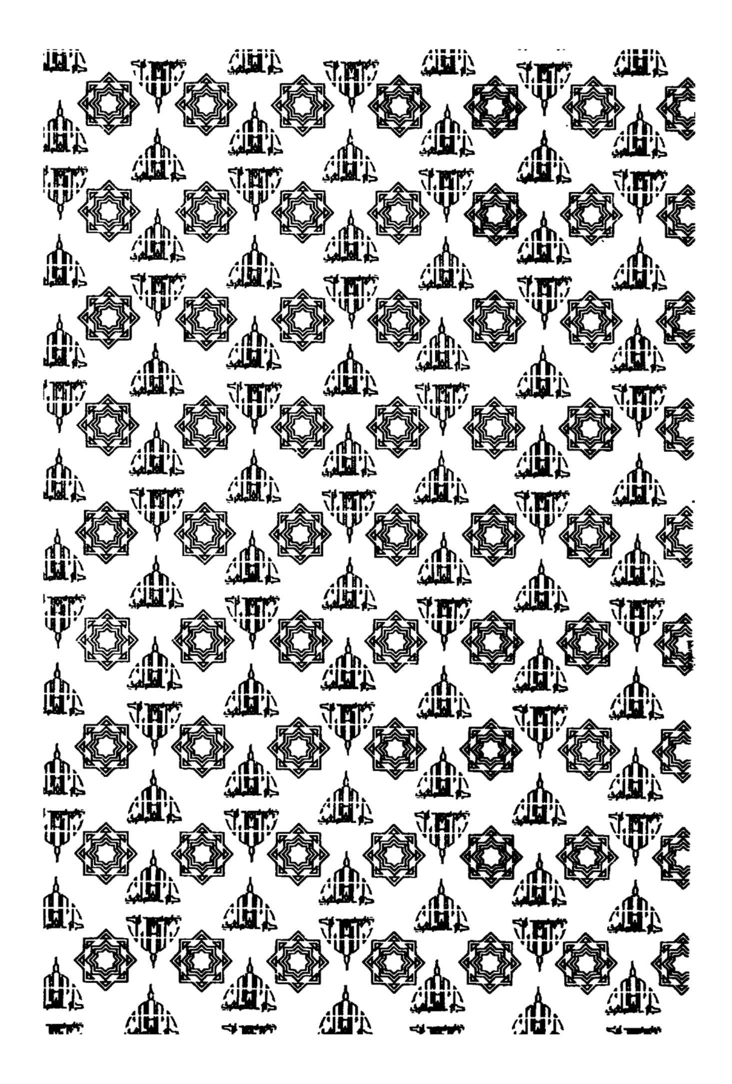
وفي الرســـالة القادمة سوف نعلمُ ما كان من أمرِ هذا الحصارِ الطويلِ إنْ شاء الله تعالى.

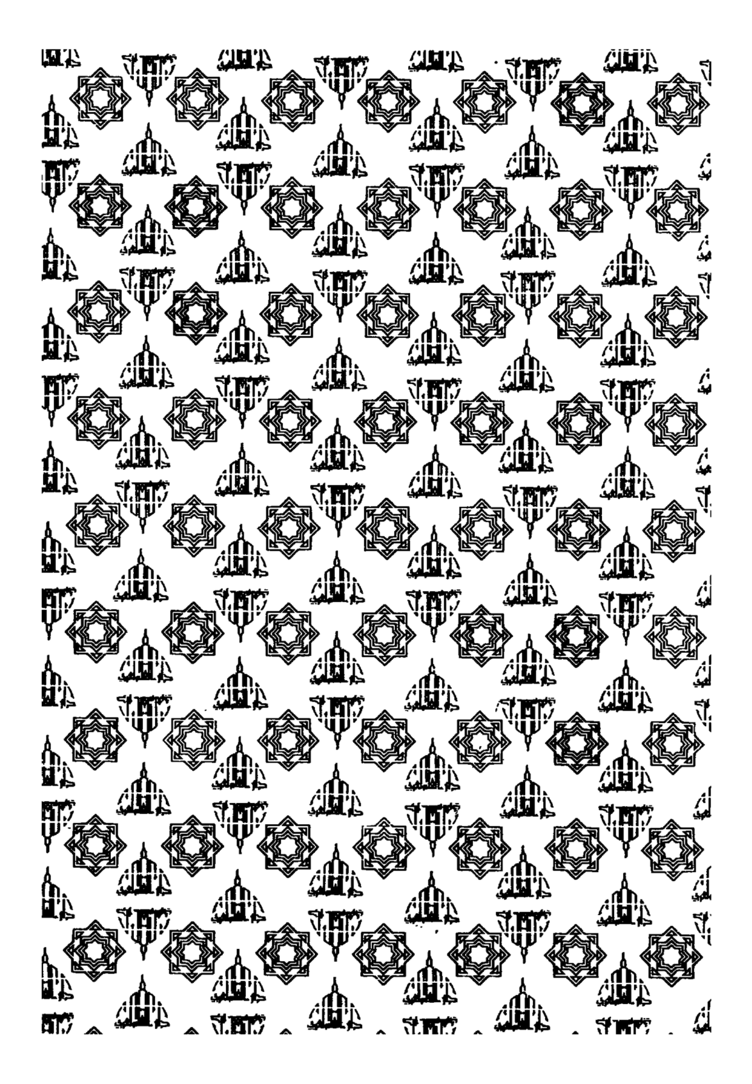
تمت الرِسالةُ والحمد لله ربِّ العالمين

وإلى اللقاء مع معركةٍ أخرى من معاركِ الإسلامِ الخالدةِ

(الفهرس)

رقم الصفحة





معارك عربية إسلامية خالدة

للصغار واليافعين

[illegible] معركة [illegible] ١٥ـ معركة [illegible]

٦ـ معركة اليمامة ١٦ـ معركة الزلاقة

٧ـ معركة [illegible] ١٧ـ معركة [illegible]

٨ـ معركة الجسر ١٨ـ معركة بيت المقدس

٩ـ معركة القادسية ١٩ـ معركة عكا

١٠ـ معركة فتح المدائن ٢٠ـ معركة عين جالوت

لم تكن الحرب لدى العرب المسلمين غاية لذاتها، وإنما كانت لرد العدوان، ولدرء الأخطار، ولإزاحة أولئك الذين يقفون في وجه الدعوة [illegible] وهي معارك تشتمل على بطولات وتضحيات وجود بالنفس (والجود بالنفس أقصى غاية الجود).

ودار القلم العربي للأطفال إذ تنشر هذه الكتب [illegible] نفوس أبنائنا حب التضحية والفداء، وحب أبطالهم الذين [illegible] سامحة [illegible]

والله من وراء القصد

الناشر

